منصة التأصيل

مقرر

منهج التلقي والاستدلال

مدرس المقرر

فضيلة الشيخ

أ.د. عثمان بن علي بن حسن علي

أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى سابقًا

منقول من الشرح المرئي المبثوث على المنصة

موع

للدراسات العقدية

موسوعة الدراسات العقدية

١٤٤٦هـ-١٤٤٧هـ

مُقَرَّرُ

مَنهج التلقي والاستدلال

مُدَرِّسُ المُقَرَّرِ

فَضِيلَةُ الشَّيخ

أ.د. عُثمان عَلِيّ حَسَن عَلِيّ

أستاذ العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود
وجامعة قطر وجامعة أم القرى

مَنقولٌ مِنَ الشَّرحِ المَرئِيِّ المَبثُوثِ عَلَى المَنَصَّةِ

جَمِيعُ حُقُوقِ ٱلطَّبْعِ وَٱلنَّشْرِ
مَحْفُوظَةٌ لِمَنَصَّةِ ٱلتَّأْصِيلِ
وَلَا يُسْمَحُ بِٱلِاسْتِخْدَامِ ٱلتِّجَارِيِّ

مُقَـرَّرُ

مَنْهَجِ التَّلَقِّي وَالاسْتِدْلَالِ

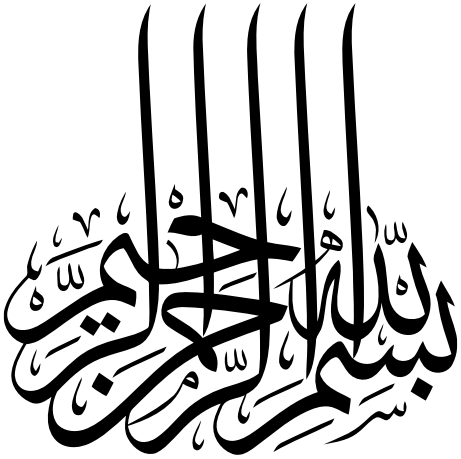
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي هدانا للحقِّ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، أحمده سبحانه وتعالىٰ وأشكره علىٰ نعمة الإسلام، وأصلي وأسلم علىٰ نبيِّنا محمدٍ، خير من تلقىٰ عن ربه الوحي واستدل بهديه علىٰ سبيل الهدىٰ والرشاد، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ العقيدةَ الإسلاميةَ هيَ الأساسُ المتينُ الذي يُبنىٰ عليهِ دينُ المسلمِ وحياتُه، وهي النبعُ الصافي الذي يُغذِّي الروحَ بالإيمانِ الصادقِ واليقينِ الراسخِ. وقد كانت نصوصُ الوحيِ الكريمِ، من القرآنِ والسُّنَّةِ، هي المنبعَ الأوَّلَ الذي استقىٰ منه السلفُ الصالحُ عقائدَهم، فكانوا علىٰ منهجٍ راسخٍ قويمٍ يبتغي الحقَّ ويتجنبُ الضلالَ، ويتحصَّنُ بآياتِ اللهِ وأحاديثِ رسولهِ صلىٰ الله عليه وسلم.

وانطلاقًا من هذا المبدأ، تأتي هذه المادةُ التعليميةُ تحت عنوان "منهج التلقي والاستدلال في العقيدةِ الإسلاميةِ"، لتتناولَ

بالدراسةِ والتحليلِ المنهجَ الذي سار عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ في تلقي العقيدةِ وفهمِها والاستدلال عليها. وهي مادةٌ تسعىٰ إلىٰ بيان أهميةِ العودةِ إلىٰ النصوصِ الشرعيةِ كمصدرٍ أساسٍ لتلقِّي الإيمانِ وتثبيتِه، مع تسليطِ الضوءِ علىٰ الأخطاءِ والانحرافاتِ التي وقعت فيها بعضُ الطوائفِ التي انحرفت عن هذا المنهجِ القويم.

سيجدُ القارئُ في هذه المادةِ استعراضًا للتطوُّرِ التاريخيِّ للطوائفِ الإسلاميةِ، وأسبابِ ظهورِ الاختلافاتِ بينهم، مع التأكيدِ علىٰ أهميةِ التزامِ المنهجِ الصحيحِ في الاستدلالِ علىٰ العقيدةِ، والاعتمادِ علىٰ المصادرِ الأصيلةِ كالقرآنِ الكريمِ والسنةِ المطهرةِ، والتمييزِ بين الاجتهادِ المشروعِ والتأويلِ الباطلِ.

كما تتناولُ المادةُ بيانَ خصائصِ النصوصِ الشرعيةِ، كسلامتِها من التحريفِ، ووضوحِ حجيتِها، ومراعاتِها للعقلِ السليمِ الذي جاء الإسلامُ ليُرشِدَهُ ويهديَهُ إلىٰ الصراطِ المستقيمِ، لا أن يكونَ خصمًا له وغيرها من القضايا، التي تمكِّنُ الطلابِ من التمييزِ بين التفسيراتِ السليمةِ والمغلوطةِ للنصوصِ الشرعيةِ، وتعرفهم بالطريقةِ التي حُفِظت بها النصوصُ ونُقِلَت عبرَ الأجيالِ، ودورِ الصحابةِ والتابعينَ في ذلك.

نسألُ اللهَ عز وجل أن يُعينَنا في هذا العملِ، وأن يجعلَه خالصًا لوجهِهِ الكريمِ، نافعًا للأمةِ، مباركًا في أثرِه. "رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ".

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

مَنَصَّةُ ٱلتَّأصِيل

الدَّرْسُ الأَوَّل

مَنهَج الاستِدلَال العَقدِيّ

❖ أهمية الوقوف عند مَنهَج الاستِدلَال:

نحتاج أن نقف عند مَنهَج الاستِدلَال، **والسبب في ذلك:** كثرة الاختلاف بين طوائف المسلمين وتنوع أقوالهم في مسائل العقيدة.

فمن المعروف أن المسلمين حتى وفاة النبي ﷺ وصدرٍ من عصر الصحابة ﷺ كانوا على منهاج واحد وسبيل مُتَّحِدٍ:

- ✓ في الاعتِقَادات والأحكام.
- ✓ وفيما يتعلق بأمور الإيمَان.
- ✓ وفيما يتعلق بأمور الأحكام العملية.

فبينهم وِفَاق عِلْمِيٌّ واتّفاق عَمَلِيٌّ، مما يجعلهم أَوْلى الناس بالدخول في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران:١١٠]، فدينُهم الذي يعتمدونه هو الكتاب والسنة:

- فعنهُما يسطِّرون، وإليهما يتحاكمون، وبهما يحتجُّون.

- فلم يُعرِضوا عن نصوص الوحي ولا عَارَضُوها.
- ولم يُعَطِّلوا أحكامه ولا حَرَّفوها.
- ولا يَقبلون من أحد –وإن علت في النفوس منزلته– مقالةً في الدين، حتى تكون موافِقَةً للكتاب والسنة.

فهكذا كان أصحاب النبي ﷺ ومن تربَّى على نهجهم من التابعين ومن تبعهم؛ حتى ظهرت الاتجاهات الشاذة تُطِلُّ برأسها على الواقع الإِسلَامِيّ.

أمثلة على الاتجاهات الشاذَّة:

١. الكلام في الصفات والقدر نفيًا وإثباتًا.

٢. الخوض في نصوص الوعد والوعيد التي تَعِدُ المؤمنين بالجنة والثواب وتَتَوَعَّد الكافرين والمخالفين بالعقاب والجحيم.

٣. مسائل الطعن في الصحابة ﷺ أو الغلو فيهم إلى غير ذلك مما كان الناس في عافية منه.

تطور الفِرَق وانتشار بدعتهم:

ثم لم تلبث هذه الاتجاهات التي كانت مجرد أقوال أن تطورت لتصبح فِرَقًا ونِحَلًا، لكل منها من الاعتِقَادات ما تخالف به جماعة المسلمين.

مثال: ظهور فِرَق مثل: الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، ونحوها من الفرق.

ثم أخذت هذه الفرق نفسها في الانقسام والاختلاف، كل فِرْقة من هذه الفِرَق الكبار أخذت تختلف فيما بينها وتُكَوِّن فِرَقًا صغيرة، ولكلِّ فِرْقة مقالاتها واعتقاداتها التي تخالف بها نظيراتها، بل وتصفها بالضلال والكفر.

وهذه الفِرَق كما أشار الشَّهْرِسْتَانِي حيث قال: "يجمعها الاستبداد بالرأي في مقابلة النص واختيار الهوى في معارضة الأمر".

لكن الغريب أنه ما من فرقة إلا وتَدَّعي لنفسها أنها مُصِيبَة للحق وأنها تُحَقِّق مُرَاد الشارع، وأنها هي الفرقة الناجية الموعود بها في حديث الافتراق الذي فيه قال النبي ﷺ: **"وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة"**[١]؛ فتَدَّعِي كل فرقة أنها هي الواحدة التي كُتِبَت لها النجاة، وبعض هذه الفرق يستدل في مقالاته بالكتاب والسنة.

---

[١] أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٩٩١)، وأحمد في المسند (٨٣٩٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/٤٨٠): "إسناده جيد ورجاله ثقات".

أمثلة:

- **الخوارج والمعتزلة** الذين نسمِّيهم بالوعيدية يحتجون بحديث: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"[١]؛ فهذا أخرجوه من الإيمان بالكلية.

في مقابل **المرجئة** الذين يحتجُّون بحديث: "ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات إلا دخل الجنة"[٢]، فأولئك الوعيدية يُخرجون العُصَاة من الإيمان ويحرمونهم من دخول الجنة، وهؤلاء المرجِئَة يضْمَنُون لكل من قال لا إله إلا الله دخول الجنة.

- كذا **نفاة القدر** يحتجون بحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[٣].

وفي المقابل **الجبرية** مثبتة القدر المغالون فيه يعملون بحديث: "اعملوا فكُلٌّ ميَّسر لما خُلِق له"[٤].

---

[١] أخرجه البخاري (٦٠١٦).

[٢] متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

[٣] متفق عليه، أخرجه البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨) باختلاف يسير.

[٤] متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

- **والمشبِّهة** الذين يُشبِّهون صفات الخالق بصفات المخلوق يحتجون بحديث: "خلق الله آدم على صورته"[١].

وفي مقابلهم **المعطِّلة** الذين ينفون الصفات ويعطلونها عن معانيها وما تستحقه يحتجون بقول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ولا يكملون الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

- **والرافضة** من الشيعة في إكفارهم لصحابة النبي ﷺ يحتجون بحديث: "يَرِد عَلَيَّ يوم القيامة رَهْطٌ من أصحابي فيُجلَون عن الحوض فأقول: يارب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتَدُّوا بعدك على أدبارهم..."[٢]، فالرافضة يعتبرون بهذا الحديث أن كثيرًا من الصحابة –غير آل البيت– خرجوا من الإيمان وارتدُّوا بعد موت النبي ﷺ.

- **والباطنية** يحتجُّون برواية: "القرآن له ظهر وبطن، ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن"؛ فيتيحون لأنفسهم فرصة تأويل القرآن على غير تأويله.

---

[١] أخرجه البخاري (٦٢٢٧).

[٢] أخرجه البخاري (٦٥٨٥).

وهكذا الكل يدعي النجاة والكل يستدل **بالكتاب والسنة**، ومع ذلك هم مختلفون غير متفقين متنازعون غير مؤتلفين فكما قيل:

الناس شتى وآراء مفرَّقة   كلٌّ يرى الحق فيما قال واعتقدا.

معرفة صفات الفرقة الناجية:

أولًا: المسلم يعلم أن القرآن حق وأن السنة حق، لكن لا يمكن أن يكون دليلًا للمقالة ونقيضها، ومستندًا للمذهب وضده.

ثانيًا: أن الرسول ﷺ أخبر أن الفرقة الناجية واحدة لا أكثر.

وهذه الفِرَق قد فاقت الحصر، بل هي الآن زادت على الاثنين أو الثلاث وسبعين فرقة وكلهم يدعي السلامة والنجاة.

فكيف نعرف المُحِقَّ من المُبطِل والصادق من المدَّعي؟

الجواب: أن رسالة النبي ﷺ هي الرسالة الخاتمة، وأن دعوته هي الدعوة الأخيرة، ومُحال أن يختلط الحق بالباطل اختلاطًا لا يتميز حتى لا يعرفه أحد ولا يهتدي إليه مهتد؛ ولهذا ذكر النبي ﷺ الوصف المميِّز للفرقة الناجية بحق، وهو:

الوصف الذي لا يشركها فيه أحد غيرها، وذلك عقب حديث الافتراق نفسه، فقد سأله أصحابه رضي الله عنهم وهم أحرص الناس

على الخير: أن يُعَيِّن لهم الفرقة الناجية، فأجابهم ﷺ إلى ذلك، لكنه لم يقيدها -أي: الفرقة الناجية- بمِصرٍ ولا عصر، بل ذكر وصفًا جامعًا مانعًا فقال ﷺ: **"ما أنا عليه وأصحابي"**[1].

إذًا؛ فهذا هو الميزان الذيُ توزن به جميع الأقوال والأعمال، والاعتِقَادات، والأحوال، وغيرها.

وتوزن به أيضا جميع الفِرَق والنحل، فلا يكفي لأحد من الناس أو فِرْقة أن تدعي النجاة حتى تَعْرِضَ نفسها وأقوالها وأعمالها واعتقاداتها وأحوالها على هذا الميزان: **"ما أنا عليه وأصحابي"**، ولا يكفي أن يَستَدلَّ بالكتاب والسنة حتى يقف على فهم الصحابة رضي الله عنهم لهذين المصدرين: الكتاب والسنة.

فقوله ﷺ: **"ما أنا عليه وأصحابي"**= هو الميزان والمنهاج والطريق الذي يُوصِل إلى معرفة الكتاب والسنة، المعرفة الصحيحة المطابقة لمراد الله ورسوله ﷺ، ومن ثَمَّ يصح الاستِدلَال بهما على المقالة أو المذهب أو حتى الفعل.

أما إذا تُرِك الأمر هملًا لكل راتِع يخبِط فيه خبطًا= لم ينضبط ولم يُعرَف المحِق من المبطِل والصادق من المدَّعِي، فـ: **"ما أنا عليه**

---

[1] أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وقال الألباني: حسن.

وأصحابي" هو الذي يميز طائفة أهل السنة والجماعة عن سائر الطوائف الأخرى، فكلها تنتسب إلى المقالة المبْتَدَعة.

أمثلة على من انتسب إلى المقالة المبتدعة:

١. القدرية والجبرية، في مقالة القدر والجبر.

٢. الخوارج والروافض، الخوارج الذين خرجوا على المسلمين بالقول وبالفعل، أو خرجوا إلى الزعيم والإمام كالكرّامية والبيانية؛ فهذه فرق تنتسب إلى شيوخها.

أما أهل السنة فقد كان انتسابهم إلى الكتاب والسنة والحديث ليس غير؛ فهداهم الله إلى ما أضلَّ عنه كثيرين، وذلك هو فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء؛ ولهذا نحن بصدد بيان مَنهَج أهل السنة في الاستِدلَال على مسائل الاعتِقَاد.

وفي هذا المَنهَج نركز على أمرين:

أولًا: مَصَادِر هذا المِنهَج، فما هي المِصَادِر التي يستقي منها أهل السنة مسائل الاعتِقَاد؟

ثانيًا: كيفيّة التعامل مع المِصَادِر.

مفهوم المَنهَج:

لكن قبل ذلك علينا أن نتعرف على: المِنهَج وأهميته في العلوم عامةً، فالمِنهَج في العادة يكون له أهداف ووسائل وله قواعد وأصول يصل من خلالها إلى ما يريد، وهذه مسألة مهمة في كل المجالات.

اهتمام المسلمين بالمَنهَج:

عنِيَ المسلمون قديمًا وحديثًا بقضية المِنهَج؛ لأنه يضبط العلم، فمشكلة المِنهَج هي مشكلة العلم في صميمه؛ **فشرط قيام العلم وتَقَدُّمِه: أن تكون هناك طريقة صحيحة تُطْرَدُ تحتها شتات الوقائع والمفردات المبعثرة هنا وهناك**؛ لتفسير ما قد يوجد بينها من علاقات أو روابط تنظمها قوانين محددة.

فمِمَّ ينشأ تأخُّر العلوم؟

تأخر العلوم ناشِئٌ في العادة عن تأخر هذه المَنَاهِج بمعنى: ألا تكون هناك مَنَاهِج محددة وواضحة ومتفق عليها، فيسير كل عالم في فَنِّه على غير هدى وبصيرة يخبط فيه خبط عشواء دون أن يصل إلى نتيجة مفيدة، وبالتالي تتعارض القضايا وتضطرب المسائل.

إذًا؛ تقدُّم العلم أو تأخره مُرتَهَنٌ بمسألة المَنهَج يدور معها وجودًا وعدمًا؛ لذا يمكن أن يقال:

- إن المِنهَج هو الذي يحفظ للعلم نظامه واتِّساقه.
- كما أنه يَضْبِط العقل البشري والأعمال الذهنية بقواعد ثابتة؛ بحيث تعينه على الوصول إلى الحقيقة فيما يبحثه من موضوعات.

أمثلة:

المثال الأول: في مجال اللغة العربية تجَلَّت أهمية المِنهَج خَاصَّةً بعد تجَاوزَ الناس عصر الاحتجاج، فاختلط العرب واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم الأعاجم؛ فدَبَّ اللحن إلى اللسانِ العربي.

واللسانُ العربي الفصيح الصحيح السليم الذي كان سليقةً هو: الوسيلة الأكثر أهمية لفهم القرآن الكريم، لكن بعد أن اختلط المسلمون بغيرهم من الأمم الأعاجم بسبب الفتوحات، صار ما صار من دخول اللحن والخطأ في اللسان العربي؛ ولهذا انتدب أمير المؤمنين عَلِيٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه أبَا الأسود الدُّؤَلي ليُقَعِّد للناس ما يحفظون به لسانهم من الفساد، وإلا كان الناس يتحدثون السليقة دون أن يعرفوا

أن الفاعل مرفوع أو أن المفعول منصوب؛ حتى دخل هذا اللحن والخطأ على الإسلام فاحتاج الناس.

وكما قال ابن خلدون: "وخَشِيَ أهل الحُلُومِ منهم -أي: أهل العقول- أن تفسد تلك المِلَكَة رأسًا ويَطُولَ العهد فيَنْغلِق القرآن والحديث عن الفهوم".

وهذا كما هو الآن في عصرنا: فكثير مِنَّا يقرأ القرآن ويقرأ الأحاديث أو يسمعها، ولكنَّ كثيرًا من ألفاظ القرآن والسنة لا نفهمها إلا أن نرجع إلى كتب التفسير وشروح الأحاديث والمعاجم اللُّغوية، فبداية هذا كان في العصور الأولى؛ ولهذا قال ابن خلدون ﷀ: "فاستَنبَطُوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك المِلَكَة مُطَّرِدَة، هي شبه الكُلِّيَّات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويُلحِقُون الأشباه منها بالأشباه"، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع وهكذا.

وقال ﷀ في موضع آخر: "وحين كان الكلام مَلَكَةً لأهله -أي: في السابق في عصر الاحتجاج- لم تكن هذه العلوم -النحو والصرف ونحوها- علومًا ولا قوانين، ولم يكن الفقيه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنها جِبِلَّتُه ومَلَكَتُه -أي: العربية والفصاحة-؛ فلما فَسَدَت

الملكة في لسان العرب: قَيَّدها الجهابذة المتجرِّدون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علومًا يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى".

فنشأت على ذلك العربية لتحافظ على صحة اللسان.

المثال الثاني: **علم التجويد**؛ فتجويد القرآن الكريم لم يكن يعرفه الصحابة ولا من بعدهم من التابعين ما ندرسه اليوم في علم التجويد، وإنما ظهر علم التجويد بعد ذلك لما دَبَّ اللحن إلى اللسان العربي؛ فاحتاج الناس إلى معرفة أحكام النون الساكنة أو أحكام الميم الساكنة والمدود والوقوف وهذه المسائل.

المثال الثالث: **علم أصول الفقه**؛ فأصول الفقه ما كان معروفًا عند الأوائل، وإنما ظهر بعد عصر الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولهذا قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الناس كانوا قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كُلِّي مرجوعٌ إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علم أصول الفقه".

فالصحابة ومن بعدهم كانوا يتعاملون مع علم أصول الفقه سليقةً كما كانوا يتحدثون العربية سليقة؛ حتى جاء الشافعي فأَصَّل

هذا العلم ووضع للخلق قانونًا كليًّا يُرجَع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع.

وقال ابن خلدون رحمه الله: "واحتاج الفقهاء والمحدِّثون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستنباط الأحكام من الأدلة؛ فكتبوها فَنًّا قائمًا برأسه سمَّوه: أصول الفقه".

المثال الرابع: **علم مصطلح الحديث**؛ فلم يكن معروفًا بهذا الاصطلاح والقواعد والتقسيمات عند الأوائل، وإنما احتاج الناس إليه لما ظهر الوضع والكذب على النبي ﷺ، فاحتاج الناس إلى معرفة أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وأحواله، وضَبْطِها وتحرير ألفاظها، ومعرفة أحوال الرواة وطبقاتهم وأصناف المرويَّات، وغير ذلك مما يتصل بهذا العلم.

مثل:

التركيز على معرفة الحديث سندًا ومَتْنًا من حيث القبول

بمعنى:

- أَيُّ حديثٍ يُقبَل؟ ما شروطه؟ وما ضوابطه؟
- وأَيُّ حديث يُرَد؟

وأنواع الحديث من صحيح وضعيف وأنواع الضعف والأحاديث الموضوعة إلى غير ذلك.

المثال الخامس: في **تفسير القرآن الكريم** قعَّد العلماء مَنَاهِج لتفسير القرآن الكريم على ما ذكر كثير من العلماء في مقدمات تفسيرهم؛ كتفسير ابن كثير وغيره، وجعلوا أفضل تفسير هو:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- ثم تفسير القرآن بالحديث.
- ثم تفسير القرآن بأقوال الصحابة ثم التابعين وهكذا.

المثال السادس: في **العلوم الطبيعية** التي تقوم على المنهَج الاستقرائي؛ جعلوا له مَنهَجا على النحو التالي:

أولًا: يبدأ بمرحلة البحث التي تعتمد على الملاحظة والتجربة.

ثانيًا: مرحلة الفرض، وفيها يفترض الباحث وجودَ علاقة بين الظواهر ثم يجري عليها تجاربه.

ثالثًا: مرحلة البرهان، وفيها يتحقق الباحث من صدق ما افترض سابقًا؛ بحيث يتأكد من أن العلاقة التي لاحظها في مرحلة الفرض هي علاقة صحيحة.

❖ أهمية المَنهَج لضبط العلوم:

فيتضح هنا أهمية المَنَاهِج لضبط العلوم وتحديد أهدافها وطرائقها؛ بحيث لا تضطرب القضايا ولا تتعارض المسائل، ويساعد على تقدم العلوم وحفظها من الدَّخيل والشاذ، وصونها عن الضياع والاختلاف إلى آخر ذلك.

ومن هنا نتَبَيَّن **أهمية مَنهَج الاستِدلَال في مسائل الاعتِقَاد**؛ وبما أن المراد والمقصود بهذه الدروس هو: بيان مَنهَج أهل السنة في تقرير مسائل الاعتِقَاد فحَرِيٌّ بنا أن نتعرف على خصائص هذا المنهَج.

خصائص مَنهَج أهل السنة في تقرير مسائل الاعتِقَاد:

وهي كثيرة لكن من أهمها:

أولًا: وِحدَة المصدر عند أهل السنة؛ فمصدرهم الذي يتلَقَّون عنه أمور دينهم هو: مشكاة النبوة التي هي: الكتاب والسنة، لا العقل ولا الذوق ولا الكشف، بل هذه الأمور هي: وسائل معرفة، لكنها لا يمكن أن تتعارض مع الكتاب والسنة، بل إذا كانت هي وسائل صحيحة ستأتي معضِّدَة لحجة الكتاب والسنة.

فلا يمكن أن نعارض الكتاب والسنة بما يسمى:

- كشفٌ.
- أو ذوق.
- أو وجدٌ.
- أو تجاربَ علمية.
- أو قول الإمام المعصوم؛ كما هو عند الشيعة الرافضة.

فهذه واحدة من أهم خصائص أهل السنة والجماعة.

الدليل على ذلك: رواية عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد الله بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة -أي: يهودي- فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ -أي: تُبيِّن لي رأيك فيها- فتغير وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقلتُ له -أي: لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ألا ترى ما بوجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا، قال: فسُرِّيَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال: **"والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم**

حظِّي من الأمم وأنا حظُّكم من النبيين"[١]. وفي رواية: "أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ -متهوِّك أي: متحيِّر، بمعنى: تريد أن تلتمس الهدى والحق والصواب في الكتب المحرفة كتب أهل الكتاب؟- والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والذي نفسي بيده لو كان موسى -كليم الله- حيًّا ما وسعه إلا أن يتَّبِعني"[٢] أي: موسى نفسه عليه السلام لو كان موجودًا ما وَسِعَه إلا اتِّباع النبي ﷺ.

فالقرآن أبطل الكتب السَّوَالِف، بل كما يقال: حتى لو وُجِدَت النسخة الصحيحة من التوراة أو الإنجيل لما جاز العمل بها؛ لأن مضامين هذه الكتب نَسَخَه الكتاب المهيمن: القرآن الكريم.

ثانيًا: أن مَنهَج أهل السنة والجماعة مَنهَجٌ توقيفيٌّ يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، فلا يردون منها شيئا ولا يعارضونها بشيء:

- لا بعقل.

---

[١] أخرجه أحمد في المسند (١٥٨٦٤)، وقال الألباني في الصحيحة (٦٣٢/٧): "حديث حسن".

[٢] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥١٥٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٠)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٣٤/٦): "الحديث قوي وله شواهد كثيرة".

- أو ذوق.
- أو منامٍ.
- أو قول إمام، إلى آخره.

فهم يُسَلِّمون لنصوص الكتاب والسنة تسليمًا مطلقًا.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[الحجرات: ١].

ثالثًا: أن أهل السنة يتجنبون الجدل والخصومات في الدين، والمقصود: الجدل من أجل الجدل؛ لأن هذا:

- يمزِّق الأمة ويمزِّق وحدتها.
- ويعرضها إلى الفتن وأن يتَّهم بعضُها بعضًا ويكفر بعضُها بعضًا.
- ويترتَّب على ذلك أن يقاتل بعضُها بعضًا.

فهم يتجنبون ذلك ويسُدون أبوابه.

وقصة صَبِيغُ بن عِسْل[١] مع عمر ﷺ مشهورة ومعروفة؛ وهو ذلك الرجل الذي جاء ودخل المدينة ويتحدَّث ويسأل عن متشابه القرآن الكريم وجعل الناس في اضطراب، فجيء به إلى عمر

---

[١] أخرجه الدارمي في سننه (١٤٦) وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/٤١١).

ﷺ وقد أَعَدَّ له عراجين النخل، فجعل يضربه حتى سَالَ دَمُه فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي.

وقال الإمام مالك: "الكلام في الدين –الجدل والخصومات في الدين– أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي الجهم ابن صفوان، والقدر وكل ما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل – الكلام الذي لا يبعث على العمل من العبادة أو التأمل أو التفكر فهذا كله عبث لا ينبغي الوقوف عنده–.

رابعًا: أن السلف ﷺ اتفقوا في مسائل العقيدة؛ لأن مسائل العقيدة كلها تقوم على الخبر عن الله وعن رسوله ﷺ ومن ذلك:

- ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه وعن ذاته وعن صفاته وأسمائه وأفعاله.
- وما أخبر به عن ملائكته.
- وعن اليوم الآخر.
- وعن الجنة والنار.
- وما أخبر به عن الأمم السابقة والأنبياء.
- وما أخبر به عن الكتب السابقة.

فينبغي لهذا أن يُقَابَل بالتصديق والتسليم.

وهذا يجعل أهل السنة يتَّفقون في مسائل العقيدة؛ فإما أن تصدق بما أخبر الله به أو أن تُكذِّب.

خامسًا وأخيرًا: أن مَنهَجَ أهل السنة والجماعة مَنهَجٌ وسط؛ فحينما نأتي إلى مسائل العقيدة نجد أهل السنة دائما يتوسَّطون بين الفِرَق التي تُغالي والتي تُقَصِّر، وهذه الوسطية واضحة جدًّا في كل المقالات التي اختلف فيها أهل السنة.

مثال: في **باب الأسماء والصفات** أهل السنة وسط بين الذين عطلوها وبين الذين شبهوها، فهم وسط بين المعطلة والمشبهة.

مثال ثانٍ: في **باب القدر** هم وسط بين المكذبين لقدرة الله وشمول علمه ومشيئته، وبين الجبرية الذين يُلغُون قدرة العبد واختيار العبد، ويعتبرون العبد ما هو إلا كالريشة في مهب الريح.

مثال ثالث: في **باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد،** أهل السنة وسط بين الوعيدية الذين يكفرون المسلمين بارتكاب الكبيرة، وبين المرجئة القائلين بأن إيمان الفاسق وإيمان الأنبياء والصالحين سواء بسواء؛ حتى قال بعضهم: إيماني كإيمان جبريل، وميكائيل وكإيمان أبي وعمر!

مثال رابع: في **مسائل الصحابة** ﷺ، فأهل السنة وسط بين الذين غلوا في بعض صحابة رسول الله ﷺ كالشيعة وبعض ولاة المتصوفة، وبين الذي كَفَّروا الصحابة ﷺ من الشيعة وغلوا في بعض الصحابة ﷺ كعلي ﷺ وآل البيت وكَفَّروا سائر الصحابة ﷺ، أو **الخوارج** الذين كَفَّروا سائر الصحابة ﷺ، فأهل السنة يعتبرون الصحابة ﷺ أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، وهم مع ذلك في الفضل متفاوتون:

- فأعلاهم في الفضل الخلفاء الأربعة.
- ثم باقي العشرة المبشرين بالجنة.

ومع ذلك لا يعتقدون في الجميع لا عصمةً ولا ألوهيةً ولا تقديسًا كما يفعل الشيعة.

الدَّرسُ الثَّانِي

مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ

المصدر الأول: القرآن الكريم (١)

❖ المقصود بمَنهَج مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ:

هي: المِصَادِر التي يستَقُون منها مسائل العقيدة، ويحتجون بها على مسائل العقيدة، ويحتجون بها على المخالفين في باب العقيدة.

وهذه المَصَادِر على قسمين:

١- **مَصَادِر أساسية**، ويمكن أن تسمى بالمِصَادِر السمعية أو النقلية التي هي:

- ✓القرآن.
- ✓السنة.
- ✓الإجمَاع.

وهذا موجود حتى في أبواب الفقه وأبواب الأحكام.

٢- **مَصَادِر ثانوية:** معضِّدة ومؤيِّدة للمَصَادِر الأساسية وهي:

✓العقل الصحيح.

✓الفطرة السليمة.

والمقصود من ذلك هو: تحرير صحة هذه المصَادِر وأنها صادقة في قضاياها، وواجبٌ على كلّ من يتكلم في مسائل الاعتِقَاد الإسلَامِيّ ألَّا يتجاوزها وألَّا يَحيد عنها ولا يلتفت إلى غيرها.

فهذه المَصَادِر الطبيعية الموضوعية، فكلّ من أراد أن يعرف الاعتِقَاد الصحيح فهذه هي مَصَادِره، وهذه هي موارده وهذه هي ينابيعه لا يوجد غيرها، ولا تُؤتَى البيوت إلا من أَبوَابِها.

أولًا: المَصَادِر الأساسيّة:

❖ المصدر الأول: القرآن الكريم:

أول هذه المصَادِر هو: القرآن الكريم، وهذا شيء طبيعي؛ أن يكون القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للمعتقد الإسلَامِيّ.

وسنركز على قضايا معينة منها:

أولًا: إثبات صحة نسبة هذا المصدر إلى قائله، وأن الله ﷻ تكلم به ليس أحد غيره.

ثانيًا: أن هذا القرآن ظلّ محفوظًا إلى يوم الناس هذا وسيظلّ؛ لحفظ الله له، وأنه سَلِم تمامًا من التحريف الذي تعرَّضت له الكتب الدينية السابقة.

ثالثًا وأخيرًا: أن نتعرف على المنَهَج في تفسير النَّصّ القُرآنيّ، وما هو المنِهَج المنطقي في تفسير هذا القرآن الكريم.

أبرز مسائل المصدر الأول:

المسألة الأولى: إثبات صحة نسبة القرآن الكريم إلى الله ﷻ:

ونعرف أن القرآن كلام الله المعِجز الذي أنزله على النبي ﷺ وَحْيًا، وسمعه النبي ﷺ من جبريل عليه السلام أمين الوحي.

الأدلة على ذلك:

- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].
- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].
- وقال النبي ﷺ: "**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات** - هي المعجزات- **ما مثله آمن عليه البشر**"[1]، فكل نبي أعطاه

---

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

الله ﷻ معجزةً تُؤيِّده حتى يُؤمن به من جاءه الخطاب، فمن الطبيعي أنه إذا جاء أحد وقال للناس: أنا رسول الله إليكم، فسيسألونه السؤال المشروع: **ما دليلك؟**

فالدليل الذي جاء به النبي ﷺ هو هذه الآية المعجزة، فكل نبيٍّ من الأنبياء زوَّده الله ﷻ بآية أي: بمعجزة، على أساسها يؤمن البشر بهذا النبي.

قال ﷺ: **"وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"**، وهذا شيء طبيعي؛ لأن القرآن كلام، والكلام يمكن أن يُحفَظ بعكس المعجزات السابقة كعصا موسى عليه السلام وأفعال عيسى عليه السلام فهذه تنتهي بموت أصحابها، لكن مات النبي ﷺ ولم تَمُتْ مُعجِزَتُه بل ظلَّت وستظلَّ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **"فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"**[1].

فيبقى مصدر القرآن الكريم هو الله ﷻ، فهو الذي تكلَّم به وأوحَاه إلى النبي ﷺ.

فكلُّ من يؤمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا ونبيًّا ينبغي أن يعترف بأن مصدر القرآن هو الله.

---

[1] سبق تخريجه.

وإلا من لا يفعل ينتقل إلى دائرة غير دائرة الإيمان هي: الكفر؛ وهي الرفض برسالة الإسلام.

والقرآن موجود لا أحد يُشكِّك في وجوده، **والسؤال: من أين أتى هذا القرآن؟**

- **المؤمن يقول**: من عند الله.
- غير المؤمن من الناس ومن يشكِّك في نسبة هذا القرآن إلى الله، **لا يشكك في وجوده لكن يشكك في نسبة وجوده**:
  - إلى من ينسب؟
  - ومن قائله؟
  - ومن الذي تحدث به؟

فله واحدٌ من أمور: إما أن يضيف القرآن إلى النبي ﷺ، وقد فعلها كثير من الناس، ويسمُّونه القرآن المحمدي فينسبونه إلى النبي ﷺ.

وأول من فعل ذلك: مُشركُو قريش فمثلا:

١. نسبوه إليه.
٢. أو إلى بشر آخر يعلِّمه للنبي ﷺ.
٣. أو إلى جن يُدَرِّسه إياه.

وهذا كله قاله أهل مكة ومن كفر بالنبي ﷺ.

أما الأول وهو: كون القرآن من عند محمد ﷺ، ويُعلِّلون ذلك بفرط الذكاء ونفاذ بَصيرته وشفافيَّة روحه مما ما يجعله يُنشِئُ – بزعمهم– مثل هذا الكلام البديع الرصين.

وهذه الدعوة ترُدُّها أدلة كثيرة، وحتى الذين ادَّعوها في زمن النبي ﷺ لم يكونوا جادِّين، لكن هي طريقة من طرق التَمَحُّل في الكفر، وهذه من الأدلة على أن هذا القرآن العربي قد أعجز الفُصحَاء والبُلغاء.

أدلة إعجاز القرآن البلغاء والفصحاء:

أولًا: ليس من الذكاء أن يأتي النبي ﷺ للناس بكلام أعجزتهم محاكاته، ثم يقول لهم: هذا الكتاب ليس من عندي، أي: إذا كان هو يريد أن يتسيَّد على الناس وأن يتأمَّر عليهم وأن يدَّعي ما ليس له، فلكان من الحكمة أن يقول: هذا كتابي ومع ذلك تعجزون عن الإتيان بمثله، لا بل النبي ﷺ قال لهم: ليس من عندي وإنما من عند غيري، فلم ينسبه إلى نفسه ليزداد رِفعةَ شأن، وهذا أول دليل يدل على صدق النبي ﷺ فلم يَنسبِ القرآن إلى نفسه.

ثانيًا: أن الإنسان مهما بلغ ذكاؤُه وصفت سريرتُه لا يمكن أن يأتي بذكر أحوال الأمم الغابِرة، ومسائل العقائد والشرائع والأحكام، وما في الجنة وما في النار من النعيم ومن العذاب، ويذكر بعض ما سيقع في قابل الأيَّام والدُّهور، كل ذلك على نحوٍ من التَّفصيل والتَّدقيق، مع تمام السَّبك وقوَّة الأسلوب، ومن غير تضادٍّ ولا اختلاف ولا تضارب.

مثال: في واقعنا المعاصر لا يمكن لأحدٍ أن يأتي بكتاب ويقول هذا الكتاب صحيح وسليم ١٠٠٪ ولا يأتيه نقص ولا عيب، ولا يمكن لأحد أن ينتقده في كلمة أو حرف أو معلومة، فلا يمكن لأحدٍ أن يدَّعيَ ذلك.

قال الإمام الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما تضمَّنه القرآن من قصصٍ وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلا من أَكْثَرَ مُلَاقَاة الأمم السابقة ودراساتِ الكُتب مع العلم بأن النبي ﷺ لم يكن يتلُو كتابًا ولا يُخالط أهل السِّيَر"، فمعروفٌ أن النبي ﷺ في مكة إلى الطائف إلى المدينة فهذه منطقته، فحتى الرِّحلة التي أراد أن يذهب فيها إلى بيت المقدس رُدَّ من الطريق.

ثالثًا: مسألة التحدِّي، وأن القرآن تحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ أو بعشر سور؛ أو بالقرآن كله= فلم يقدروا على ذلك.

ولم يتجرَّأ أحد على قبول هذا التحدِّي، وهذا تحدٍّ فيه مخاطرة؛ فأن يأتي أحدٌ ويتحدَّى الناس على أن يأتوا بمثل هذا الكلام فيه مخاطرة.

والواقع أنهم لم يستطيعوا وهم أهل الفصاحة والبلاغة وأهل الشعر والبيان الذي عَقدُوا له أسواقًا يَتبَارَون فيها، ومع ذلك عجزوا عن محاكاة القرآن أو مواجهة القرآن أو أن يَكتشفُوا نقصًا في القرآن الكريم.

رابعًا: التناسب فيما تضمنه القرآن الكريم من أخبارٍ وعقائد وأحكام، من غير اختلاف ولا تعارض ولا تضاد، الأمر الذي لا يُنتَظر من بشرٍ أن يَسلَم كلامه من الاختلاف.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فالمفهوم: ما دام أنه من عند الله فلا اختلاف فيه.

خامسًا: الإشارات العلميَّة والكونيَّة في القرآن الكريم، وهذه **هي البوَّابة التي دخل منها كثير من الغربيين والأوروبيين للإسلام**؛

فالإسلام لم ينتشر في أوروبا وفي الغرب في عصورنا هذه المتأخرة إلا عن طريق هذه الإشارات، وهي كثيرة جدًّا، سواء فيما يتعلق بإشارات كونيَّة أو أخلاقيَّة أو تشريعيَّة.

مثال: **نجد أن النصرانية تنتشر في أيام الأزَمَات** وفي البلاد التي تكون فيها مشاكل وحروب وصراعات، فتبدأ تَتسرَّب إليهم النصرانية عن طريق الدِّراسات والمساعدات.

لكن الإسلام على العكس كُلَّما هَجَم عليه الأعداء عسكريًّا أو سياسيًّا أو اقتصاديًّا= كُلَّما انتشر وكُلَّما اشتدَّ عُودُه، ونرى ذلك بعد الأحداث العِظَام، **وآخرها أحداث غزة التي نُعايشها هذه الأيام**، ينتشر الإسلام في بلاد الغرب، مع أن المسلمين يُقتَّلون ويُحاصَرون ويُجوَّعون وتُنتَهك كرامتُهم، ومع ذلك الإسلام يشتدُّ وينتشر ويُقبِل عليه كثير من العقلاء.

الأمر الثاني: أما أن يكون النبي ﷺ تعلَّم القرآن من غيره؛ فهذا الغير إما أن يكون إنسيًّا أو جنيًّا، وإما أن يكون من بني قومه أو من أهل الكتاب، **والرد على هذه الاحتمالات كما يلي:**

- **الاحتمال الأول: أما كونه ﷺ تَعلَّم القرآن من بعض قومه،** فهذا فاسد من وجهين:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ نَشَأ أُمِّيًّا بين ناس أُمِّيين لا يعرفون غير علم البيان والفصاحة وما يتصل بهما، وكانوا منعزلين بشركهم عن هل الكتاب.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، ففي الآية إشارة واضحة إلى أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب وليس لهم به دراية.

الوجه الثاني: لم يَدَّعِ واحد من العرب –مع شدة تكذيبهم وحرصهم على معاداة النبي ﷺ وتكذيبه– نِسبةَ هذا القرآن إلى نفسه، فما قال واحد منهم: هذا القرآن أنا الذي قلته، ومحمدٌ سَرَقَه مني.

ثم إن الله تعالى قد تَحَدَّى به البلغاء والفصحاء على أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يتعرَّض واحدٌ منهم لذلك اعترافًا بالحق ورِبْأً بالنفس عن تعريضها للافتضاح، وهم أهل القدرة في فنون الكلام؛ نظمًا ونثرًا وترغيبًا وشعرًا.

- **الاحتمال الثاني: أما أن يكون المعلِّم من أهل الكتاب**، فهذا يردُّه كثير من الأمور منها:

أولًا: أنه لم يَذكر واحدٌ من المصَادِر التَّاريخيَّة جلوسَ النبي ﷺ بين يدي أحبار اليهود أو رُهبان النصارى؛ بُغيةَ التعلُّم والمدَارَسة.

ثانيًا: لا اليهود ولا النصارى ادَّعوا أن هذا القرآن هو كتابهم الذي علَّموه للنبي ﷺ، أما ما يُذكر بمقابلة النبي ﷺ لبعض أهل الكتاب فكما يأتي:

الأول: ما يُذكر من مقابلة النبي ﷺ لبَحِيرا الراهب في سفره، وهو صغير مع عمِّه أبي طالب إلى بيت المقدس أو إلى بلاد الشام؛ **فيرُدُّ تعلّمه منه أنها**:

- كانت فترة قبل النبوة وكانت جلسة وَجِيزةً لا يُعقَل أن يَتلقَّى فيها كل هذا العلم.
- أنها كانت بحضور أبي طالب وغيره من قريش، ولو وجدوا في تلك المقابلة ما يُبطِل دعوة النبي ﷺ النبوة لأَفشَوْه إلى قريش.
- أن بَحِيرا لما لَاحَت له تبَاشِير النبوة هَمَسَ بها إلى أبي طالب، حاثًّا على المحافظة على ابن أخيه هذا من اليهود.

الثاني: ما يُذكر من مقابلة النبي ﷺ لورقة بن نوفل، وهو ابن عمّ زوجِهِ خديجةَ رضي الله عنها، وذلك بُعَيد النبوّة مباشرةً فيرُدَّ تعلمه منه أنها:

- **كانت لأجل الاطمئنان عليه ﷺ**؛ فورَقَةُ كان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، ولم يلبث أن تُوفِّي قبل فترة الوحي؛ مما يُحيل دعوى تعلم النبي ﷺ منه شيئًا.
- بل قال له ورقة: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى أو كان يأتي عيسى، وليتني كنت جذعًا إذ يُخرِجك قومك... إلى آخر ما قال، **فهو تمنَّى أن يكون حيًّا ليَقِف مع النبي ﷺ ويُؤيّده في هذه المهمَّة.**

ثالثًا: أن الله تعالى رد على الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ وذلك حين زعم المشركون في مكة أن النبي ﷺ كان يجلس إلى بعض غِلمَانِ النصارى يَتعلَّم منهم، فرَدَّ الله عليهم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]

أي: لسان اليهود والنصارى أعجميٌّ والقرآن لسان عربيٌّ مبين، وفرقٌ بين اللسانين.

رابعًا: أن القرآن نفسه شنَّع بأهل الكتاب ودَحَض شبهاتهم وأغاليطهم وكفَّرهم؛ فكيف يكون مصدرَ القرآن الكريم هو اليهود أو النصارى؟

فقد ذُكِر في القرآن ما كَفَروا به من ألوهية عُزَير وتسميته بأنه ابن الله.

الدليل: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[التوبة: ٣٠].

الاحتمال الثالث: أما أن يكون المعلِّم جنيًّا؛ فيُحِيلُه أمور منها:

- حال النبي ﷺ بين قومه ولُبثه فيهم عُمْرًا طويلًا.
- وهو أحسنهم أخلاقًا وأعظمهم عقلًا وأثبتهم نفسًا وأفسحهم فهمًا.

كل ذلك وغيره يُحِيل أن يكون ﷺ ملاذًا للشياطين ومحلًّا للوساوس، بل الشياطين أعجزُ من أن تأتي بمثل هذا الكلام.

- **أما إضافة قريش القرآن إلى السِّحر والجنِّ والكهانة؛** فهذا حينما أعيَتهُم وعجزوا عن الإتيان بمثله؛ فأضافوا القرآن إلى السحر والجن كما في قصة الوليد وغيره.

الدَّرسُ الثَّالِث

المصدر الأول: القرآن الكريم (٢)

المسألة الثانية: حفظ القرآن الكريم:

أولًا: حفظ القرآن الكريم في عهد النبوَّة:

أنزل اللهُ ﷻ كتابَه ليكون الكتاب المُهَيمِن والرّسالة الخاتمة؛ لأنه لو ضاع هذا الكتاب ما عادت هناك رسالة ولا نبوة ولا حجة على الناس؛ فهذا القرآن هو مادَّةُ الرسالة الخاتمة، تَولَّى الله ﷻ حفظه وبَقَاءَه وبُعْدَه عن التّحريف والتّغيير.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩].

وأولُ حِفظٍ حُفِظَ به القرآن الكريم في عهد النبوة نفسها، وهو له وجوهٌ عدة ومن ذلك:

الوجه الأول: الطريقة التي كان ينزل بها الوحي، فكان ينزل على هيئةٍ وطريقةٍ هي أَدعَى إلى حفظه وضبطه.

الدليل: أخرج البخاري رَحِمَهُ الله عن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا أن الحارث بن هشام رَضِيَ الله عَنْهُ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **"أحيانا يأتيني مثل صَلصَلَة الجَرَس وهو أشدّه عليَّ فيُفصَمُ عنّي وقد وعَيتُ عنه ما قال**، -وعيت أي: فهمت وحفظت عنه وعقلت- **وأحيانا يتمثَّل لِيَ الملك رجلًا فيكلّمني فأعِي ما يقول**"[1]، ما يقوله المِلَك.

فهاتان طريقتان ذُكِرتا في الحديث هما:

١- **طريقة صلصة الجرس**؛ وهي قوَّة عظيمة جدًّا والغرض منها: شدُّ انتباه النبي ﷺ فيتفرَّغ بذهنه وقلبه وعقله وكيانِه كلِّه لتَلقِّي القرآن الكريم عنه، فيَنفَصِم عنه وقد وَعَى ما قال.

٢- **أن يتمثَّل له الملك رجلًا** فيكلِّمه فيَعِي ما يقول، وهاتان طريقتان تدعو إلى حفظ القرآن الكريم.

وهناك طُرُقٌ أخرى جاء بها الوحي للنبي ﷺ منها:

٣- **المدارسة**؛ فإن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأتي النبي ﷺ في كل رمضان يُدارِسُه القرآن ويُراجِعه، حتى آخر رمضان الذي توفي بعده

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

النبي ﷺ جاء جبريل مرتين ويسمونها: العرضة الأخيرة؛ فعرض النبي ﷺ القرآن على جبريل يُرَاجِعُه.

الوجه الثاني: كتابة الوحي؛ فقد كان النبي ﷺ إذا جاءه الوحي دعا الكتَبَة وألقى عليهم ما سَمِعَه من الملَك، ثم طلب منهم أن يَقرؤُوا ما كتبُوه، فإذا وجد خطأً أو سقطًا أقامه؛ فهذه طريقة من طرق حفظ القرآن الكريم.

الوجه الثالث: قَصْرُ الكتابة على القرآن الكريم؛ فقد كان النبي ﷺ في بداية الأمر يَنهَى أن يُكتَب شيءٌ سِوَى القرآن؛ حتى لا يختلِطَ القرآن بغيره.

الدليل: كان ﷺ يقول: **"لا تكتبوا عنِّي، ومن كتب عني غير القرآن فليَمْحُه وحدثوا عني ولا حرج..."**[١] الحديث، ثم بعد أن استقرّ القرآن ووَضَح، وعُرِفت طريقة القرآن وأسلوب القرآن أُذِن بالكتابة عن النبي ﷺ بعد أن زال سبب المنع.

الوجه الرابع: الحثُّ على تَعلُّم القرآن وتعليمه؛ فقد كان النبي ﷺ يحثُّ أصحابه على تَعلُّم القرآن وتعليمه وحفظه وتحفيظه،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٤).

وكان ﷺ يُقدِّم أكثرهم أخذًا للقران في إمامة الصلوات وقيادة السَّرايا، وحتى في الدفن كان يُقدِّم الأكثر حفظًا للقرآن الكريم.

الدليل: قال ﷺ: **"خَيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه"**[١]، إلى آخر النصوص، فهذا جعل الصحابة يتسابقون على حفظ القرآن الكريم.

الوجه الخامس: قُوَّة الحافظةِ عند العرب الأوائل، فالعرب كانوا أهل حافظةٍ لا تكاد تُخطِئ وذاكرةٍ لا يكاد يَعزُب عنها شيء، وخاصَّة أن القرآن جَاءَ في براعةٍ من الأسلوب ورفعةٍ من البيان ما يَجعله أَحرَى لحفظه والاهتمام به حتى كَثُر آخذوه صدرًا وسطرًا.

فهذه الأمور كلها ساعدت على حفظ القرآن الكريم في عهد النبوة.

ثانيًا: حفظ القرآن الكريم في عهد الصحابة:

أما عهد الصحابة فتميَّز بحادثتين كبيرتَين عظيمتَين هما:

الحادثة الأول: حادثة جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق، وهي معروفة؛ حيث جُمِع القرآن الكريم في مكان واحد.

---

[١] أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

وسبب هذا الجمع: كثرة القتل في القرَّاء حفظة القرآن الكريم؛ وذلك يوم اليمامة؛ حيث استحَرَّ القتل بقرَّاء القرآن وخَشِي الصحابة أن يذهب القرآن بذهابِ حُفَّاظِه؛ فأجمعوا على حفظ القرآن الكريم في مكان واحد، وكانت هذه حادثة عظيمة، وهي من مناقب الخليفة الأول والصدِّيق الأكبر أبي بكر الصديق ﵁.

الحادثة الثانية: حادثة جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة الثالث عثمان ﵁؛ وذلك لما بدأ النزاع يظهر بين بعض المسلمين خاصةً في الأطراف.

سبب الجمع: الاختلاف في الأَحرُف التي نزل بها القرآن الكريم؛ فأجمع الصحابة على جمع القرآن الكريم على حرفٍ واحد وإحراقِ بقية الأَحرُف؛ حتى لا تَنتشِر الفُرْقَة في الدين بين المسلمين؛ فكان له دورٌ عظيم.

المسألة الثالثة: سلامةُ القرآن الكريم من التَّحرِيف:

سلِم القرآن الكريم من التَّحريف سلامةً لم تتهيَّأ للكتب السابقة؛ فهذا القرآن الذي بين أيدينا الآن هو نفسه القرآن الذي كان بين يدي الصحابة، وهو نفسه القرآن الذي نزل به جبريل ﵇

على النبي ﷺ، وهو الذي تَلَاه على الصحابة ﷺ، وسمِعَه منه الصحابة ﷺ وكتبوه؛ لم يَتغيَّر منه حرف.

فالقرآن الذي ما بين الدفَّتين مما في أيدي الناس اليوم هو هو نفسه الذي نَزَل على النبي ﷺ لا زيادة فيه ولا نقص، وهذا لم يتوفَّر لأيِّ كتابٍ من الكتب قديمًا وحديثًا، وقد ورد إلينا هذا الكتاب -القرآن الكريم- متواترًا بنقل الكافَّة من الناس التي لا تقع تحت حصرٍ ولا عَدٍّ عن مثلها حفظًا وكتابةً، ولم يختلف في عصر من العصور عمَّا في غيره، بل هو كتابٌ واحدٌ بلفظٍ واحد يجتمع أهل الأرض جميعًا على قراءته دون اختلاف بينهم لا في سورةٍ وآية، أو كلمة أو حركة.

وخير شاهد على ذلك: المسابقات العالميَّة التي تُعقَد في كثير من دول العالم للقرآن الكريم، ويَنضمُّ إليها أجناسٌ من النَّاس من أنحاءَ شتَّى من العالم؛ فمن الصين ومن الهند ومن إيران ومن البلاد العربية والإفريقية والأوروبية والأمريكية، وكلُّهم يقرأُ نفسَ القرآن بنفسِ الترتيب ونفسِ الصور، لا يختلف أحد عن أحد؛ فهذا خيرُ دليلٍ على بقاء القرآن وحفظه.

الأدلة على حفظ القرآن الكريم:

- قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، فتولَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حفظ هذا الكتاب، وبه يُحفَظ الإسلام ويُحفَظ الدِّين وتقوم به الحجَّة إلى يوم الدين.
- وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الأنعام:١١٥].

ومن وسائل هذا الحفظ: **النقلُ المتواتر**؛ ومعروفٌ أن أيَّ موضوعٍ أو معلومةٍ أو خبر: إذا نُقِل نقلًا متواترًا فلا يُنظَر حتى في أحوال الرُّوَاة من حيث العدالة أو الضبط ونحو ذلك؛ لأن النَّقل المتواتر يَطغَى على جميع العيوب.

المسألة الرابعة والأخيرة: المَنهَج في تفسير النَّصّ القُرآنيّ:

وقد اتفق العلماء على مَنهِج تفسير القرآن الكريم وهو:

المَنهَج الأول: طلبُ معرفةِ معنى النَّصّ من القرآن نفسه:

والمقصود: تفسير القرآن بالقرآن، وهذا خير تفسيرٍ وأصدق تفسيرٍ، وهي من أفضل طُرُق التفسير؛ أن يعرف مراد المتكلم من

كلامه نفسه حسب قواعد لغته التي يتكلم بها وحسب طريقته وعادته في الكلام فيفسِّر كلامه بعضَه ببعض.

ويسّر ذلك عدة أمور:

١- أن القرآن عربيٌّ.

ودلَّ على ذلك: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف:٣].

٢- وأن القرآن مُنَزَّهٌ عن العِوَج والعُجمَة.

والأدلة على ذلك:

✓ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾[الزمر:٢٨].

✓ وقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣].

٣- أن الذي أُنزِل عليه القرآن كان عربيًّا فَصيحًا وهو محمد ﷺ.

٤- وأن الذين خاطبهم بالقرآن كانوا عربًا فُصَحَاء.

فجرى الخطاب بالقرآن على مُعتادِه كما في لسانهم لفظًا ومعنًى؛ ولهذا قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يَعلَم من إيضاح جُمَل علم الكتاب أَحَدٌ جَهِل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجِمَاع معانيه وتفرّقها، ومن عَلِمَه وأَتقَنَه -أي: من علم هذا اللسان بأساليبه

ومعانيه- انتَفَت عنه الشُّبَه التي دخلت على من جهل لسانها"؛ فلهذا الذي يجهل لسان العرب لا يستطيع أن يفهم القرآن أو أن يُفسِّر القرآن الكريم؛ ولهذا قال الإمام الشاطبي: "لا يجوز لأحد أن يتكلم في الشريعة حتى يكون عربيًّا أو كالعربي في كونِه عارفًا بلسان العرب".

ما المقصود هنا بالعربي؟

لا يُقصَد به عِرْقٌ ولا جِنس؛ وإنما المقصود كما يقال: العربية لسان، وكان معظم أهل العربية من الأعَاجِم كسيبويه وغيره.

وهذا هو المقصود بالعربي أي: بالغًا فيه مَبَالِغهم.

وذكر الإمام الشافعي في كتابه الرسالة:

- "فالعرب تُخاطب بالشيء عامًّا ظاهرًا تُريد به العام الظاهر،
- لكنها أيضًا تُخاطب بالشيء عامًّا ظاهرًا تريد به الخاص،
- وظاهرٌ يُعرَف في سياقه أنه لا يُراد به غير ظاهره.

كل هذا موجود عِلمُه إما في أول الكلام أو في وسطه أو في آخره.

- والعرب تتكلَّم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ.
- وتُسمِّي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة.

- وتُسمِّي الاسم الواحد المعاني الكثيرة.

وهكذا القرآن نزل بهذا الأسلوب".

أمثلة لأساليب القرآن الكريم:

- **العام الظاهر مع بقائه على عمومه**، مثل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]، فهذا عام يُراد به العام؛ فأيُّ دابة في الأرض هي مرزوقة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهذا عام لا خصوص فيه، ولا يُستثنَى منه شيء.
- **عام يُراد به الخصوص** مثل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾[آل عمران:١٧٣]، **فالمراد الناسُ هنا**: بعضُ الناسُ ليس كلُّ الناس، بل جاء في رواية أنه شخص واحد، فالذين قال لهم الناس: هو واحد لكن بسبب عِظَم ما قاله فكأنما كلّ النَّاس قالوه.
- **ما يُعرَف معناه في سِياقه**، مثل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾[الأنبياء:١٢]، **فالمراد بالقرية**

هنا: أهلها ليس المنازل ولا الأسواق ولا الشوارع؛ وإنما المراد أهلها، فإن هذا عام يُراد به الخاص.

- **ومن أساليب القرآن: أنه قد يُوجِز في موضوع ما ويُفصِّل فيه في مكان آخر**؛ **مثل**: قصةِ فرعون وموسى؛ فقد أَوجزَهَا في سُوَرٍ وفصَّل فيها في سُوَرٍ أخرى، وذلك حسب الهدف من السورة.

- **ومن الأساليب: أن يَرِدَ النَّصُّ مطلقًا في موضع ثم يُذكَرُ مقيَّدًا موضع آخر**؛ إما متصلًا أو منفصلًا، **مثل**: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام:٨٢]، فقال الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ: وأيُّنا لم يَظلِم يا رسول الله؟ فنزَّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، فليس هو أيُّ ظلمٍ كما يَظلِم الإنسان أخاه أو نفسه، وإنما المقصود بهذا الظلم في هذه الآية: **الشرك**.

- **وقد يرد النص عامًّا في موضع ويرد مخصصًا في موضع آخر**، **مثل**: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[البقرة:٢٥٤]، فنفى عموم الخلَّة والشفاعة

فلا تنفع صاحبها، لكن في موضع آخر قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧]

أي: خُلَّة المتقين تنفع يوم القيامة.

فالمفسِّر يحتاج أن يجمعَ الآيات في الموضوعِ الواحد وينظرَ فيها مجتمعةً؛ لأنه قد يكون بينهما إطلاق وتقييد وخصوص وعموم وهكذا.

المَنهَج الثاني: طلبُ معرفة النَّصّ القُرآنيّ من سنة النبي ﷺ:

أفضل طريقةٍ -كما سلف- لتفسير القرآن وفهمه هو:

١. **القرآن نفسُه.**

٢. فإن لم يتيسر فهم النَّصّ القُرآنيّ من القرآن نفسِه **طلبه المفسر من سنة النبي ﷺ** فهي: البيان للقرآن الكريم، ونحن نعرف أن علاقة السنة بالقرآن الكريم علاقةٌ مُؤكِّدةٌ، أو مُفسِّرةٌ، أو مُبيِّنةٌ، أو مُخصِّصة إلى آخر ما هُنالِك من العلاقات.

الأدلة على ذلك:

- قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[النساء:١٠٥].

- وقـــال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].
- وقـــال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

فيتبيّن من هذه الآيات أن علاقة النبي ﷺ بإيضاح القرآن الكريم وتفسيره علاقةٌ وثيقة، وقد قال ﷺ: **"ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"**[١]، أي: ينزِل بالسُّنة الوحي كما ينزل بالقرآن الكريم، وقد ذكر ذلك العلماء؛ ولهذا لا نستطيع القيام بكثير من العبادات، بل بأصول الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج إلا عن طريق السنة.

فالسنة هي التي جاءت ووضَّحت كلَّ شيء، مثل:

- ✓ الأركان والواجبات والمحظورات.
- ✓ المستحبات والمكروهات.
- ✓ والهيئات والأوقات.
- ✓ والمقادير والأنظمة.

---

(١) أخرجه أبو داوود في سننه (٤٦٠٤)، وأحمد في المسند (١٦٥٤٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/٨٧١): "صحيح".

وكل ذلك على نحوٍ من التَّفصيل لم يَرِد في القرآن الكريم؛ ولهذا قال العلماء: "حاجة القرآن من السنة أعظم من حاجة السنة إلى القرآن" فالسنة هي: البيان العمَلِيّ والتَّفصيليّ لكثير ممّا ورد في القرآن الكريم.

إذا؛ الطريقة الثانية والمَنهَج الثاني للتفسير هي: أن نلجأ إلى السنة النبوية لفهم معاني القرآن الكريم.

المَنهَج الثالث: طلب معرفة النَّصّ القُرآنيّ من أقوال الصحابة ﷺ:

ولما تعذَّر فَهْمُ النَّصّ القُرآنيّ من السنة= **طلبَهُ المفسِّرون من أقوال الصحابة ﷺ فَهُمْ أعلم الناس بذلك.**

فالصحابة لهم خصوصيَّة وذلك لعدة أمور:

- **أنهم هُم الذين شاهدوا القرائن والأحوال،** وعَايَنُوا التَّنزيل وعايَشُوا النبي ﷺ.
- **أن لهم من الفهم والعلم والعمل الصالح ما ليس لغيرهم،** لا سيَّما من علمائهم الكبار: كالخلفاء الأربعة الراشدين ﷺ، والأئمة الأعلام؛ كعبد الله بن مسعود ﷺ الذي قال: "والذي لا إله إلا هو ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلمُ حيثُ نزلت، وما من آية إلا أنا أعلمُ فيمَ نزلت، ولا أعلم أحدًا هو أعلمُ بكتاب

الله عندي تبلغُه الإبل لَرَكِبتُ إليه"، أي: لو أعرِفُ واحدًا أعلم مني في آية وكان بعيدًا لا يُؤتَى إلا بالمطايا والإبل لركبت إليه.

○ **شهادة النبي ﷺ لبعض أصحابه بهذا الفضل**، كما سُمِّي ابن عباس رضي الله عنه بحَبْرِ الأمة وتُرْجُمَان القرآن؛ وذلك ببركة دعاء النبي ﷺ له بقوله: **"اللهم عَلِّمهُ الكتاب"**[١].

المَنهَج الرابع: طلبُ النَّصّ القُرآنيّ من أقوال التابعين.

وإذا لم نجد في أقوال الصحابة ما يكفينا ويُعِيننا على فهم المراد، فقد رجع كثيرٌ من الأئمة إلى: أقوال التابعين الذين عاشوا مع الصحابة رضي الله عنهم وعَايَشُوهم وسمعوا منهم وجَالسُوهم واستفادوا من علمهم، لا سيَّما كبار التابعين ومنهم:

١. **مُجَاهِد بن جَبْر**؛ فقد كان آيةً في التفسير، وقد قال عن نفسه: "لقد عَرَضتُ القرآن على ابن عباس رضي الله عنه ثلاث عرضَات، أقف عند كل آية أسأله: فيمَ أُنزِلت؟ وفيمَ كَانَت؟"[٢]، فهذا

---

[١] أخرجه البخاري (٧٥).

[٢] سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٠).

حريٌّ أن نأخذ التفسير منه؛ فهو عَرَض القرآن على تُرجمان القرآن ابن عباس ثلاث عرضات.

٢. **سعيد بن جُبَير**.

٣. **وعِكرِمَة مولى ابن عباس**.

٤. **وعطاء بن أبي رباح**.

٥. **والحسن البصري**.

وغيرهم كثير من التابعين الذين استفادوا علم القرآن الكريم وتفسيره من الصحابة ﷺ، ويُؤخَذُ منهم تفسير القرآن لأسباب عدة منها:

- ✓أنهم أقرب عهدًا بنزول القرآن.
- ✓وأعرف من غيرهم بلغته وأساليبه.
- ✓وأكثرهم حفظًا للسنن والآثار.
- ✓وأنهم من أهل القرون المفضلة المشهود لها بالخير الصحيح.

والدليل على أنهم من خير القرون: قول النبي ﷺ: **"خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"**[(١)]، وهذه الخَيريَّة هي خيريَّةُ علمٍ وإيمانٍ وعملٍ صالح.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

الخلاصة: القرآن مقدمةُ المَصَادِر في مسائل الاعتِقَاد:

فالمقصود إذا من خلال التفصيل الذي سبق: بيانُ أن القرآن الكريم يأتي في مقدمة المِصَادِر التي يَستَقِي منها أهل السنة والجماعة مسائل الاعتِقَاد، وغيرها من مسائل الأحكام.

وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي تَكلَّم به، وأنزله على رسوله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، وقد تَكفَّل الله بحفظِه وصيانته عن الزيادة والنقصان، وهو الآن على ما كان عليه يوم أن نَزَل، لا زيادة ولا نقصان.

الدَّرسُ الرَّابِعُ

المصدر الثاني: السُّنة النبوية (١)

مسائل المصدر الثاني:

١- أن السُّنَّة وحيٌ من عند الله ﷻ -كما القرآن الكريم-.

٢- أنها محفوظةٌ وَجَدَت من عناية الحفظ ما وَجَدَت -كما القرآن الكريم-.

٣- أنها حجة كما القرآن الكريم حجة؛ فمنزلة السُّنَّة كمنزلة القرآن الكريم.

المسألة الأولى: أن السُّنَّة وحي من عند الله ﷻ:

السُّنَّةُ وحيٌ من عند الله ﷻ، وإن كانت وحيًا غير متلوَّة كما القرآن الكريم، لكنه وحيٌ ملفوظٌ بألفاظ النبي ﷺ ومعانيه من الله ﷻ.

فمعاني أحاديث النبي ﷺ أو معاني السُّنَّة كان ينزل بها جبريل عليه السلام كما ينزل بالقرآن الكريم، أو ينفثُ بها في روع النبي ﷺ أي: في قلبه وفؤاده.

الدليل: جاء في الحديث: **"إن الروح الأمين** -أي جبريل عليه السلام- **قد أَلقَى في رُوْعِي** -أي: أَلقَى في نفسي أو في عقلي أو في قلبي أو في فؤادي- **أنه لن تموت نفسٌ حتى تَستَوفي رزقها، فاتقوا وأجملوا في الطَّلب"**(١)؛ فهذه السُّنَّة عن طريق الإلهام، وهنا تختلف عن القرآن الكريم في طريقة الإيحاء بها.

طُرُق الوحي بالسُّنَّة:

١- قد يأتي الوحي على النبي ﷺ منامًا.

٢- وقد يأتي إلهامًا.

٣- أو قد يكون اجتهادًا من النبي ﷺ والله عز وجل يُؤيِّدُه ولا يُخطِّؤُه؛ فالرسول ﷺ قد يقول أو يفعل باجتهاد منه في حدود ما تعلَّمَه من مقاصد الشريعة وقَواعِدِه الحكيمة، وهذا الاجتهاد:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٣٩)، وابن حِبَّان في صحيحه (٣٢٢٧)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٨/٦): "صحيح بمجموع طرقه".

- إما أن يقرَّر عليه وبالتالي يَرجِع إلى حقيقة الوحي.
- أو لا يقرّر فيُنَبَّه إلى الصواب، ويكون الصواب هو: الوحي.

الأدلة على أن السُّنَّة وحيٌ من الله ﷻ:

والأدلة على كون السُّنَّة من الوحي كثيرة، وهي ترجع إلى الكِتابِ والسُّنَّة نفسها وإجمَاع المسلمين، وإلى النَّظَر الصَّحِيحِ أي: الاستِدلَال العقلي.

دلالة القرآن على أن السُّنَّة وحي:

الدليل الأول: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]، فهذا عام في جميع ما ينطق به ﷺ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "اكتُب فَوالَّذي نفسي بيده، ما يَخرج منه -أي: من فِي النبي ﷺ- إلا حقّ"، وَأومَأَ ﷺ بإصبعه إلى فِيه[1].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٣)، ومسلم (٢٣٧٩).

وهذه الحادثة لها مناسبة وهي: أن قريشًا قالت لعبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ: "أتكتب كلَّ شيءٍ تسمعه من النبي ﷺ؟ ورَسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم في الغضب والرضا"، فأمسَكَ عن الكتابة حتى ذكر وشكى ذلك إلى الرسول ﷺ فذكر له الحديث: "**اكتب فوالذي نفسي ما يخرج منه إلا حق**"؛ فهذا دليل على أن السُّنَّة من الوحي.

الدليل الثاني: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣١].

الدليل الثالث: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٣٤].

قال الشافعي ﵀: "فسمعت من أرضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ"، وهذا يُشبِه ما قال والله أعلم؛ لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْه الحكمة، وهذا في كثير من المواضع في القرآن الكريم، وقال ﵀: "وذكر الله مِنَّتَه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يَجُز والله أعلم أن يُقالَ الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله ﷺ".

ونقل القرطبي ﵀ عن أهل العلم بتأويلِ تفسيرِ الحكمة هنا بالسُّنَّة، فإذا كانت الحكمة معناها السُّنَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَرَن بين الكتاب والسُّنَّة في الإنزال، فهذا يقتضي كونها من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والأدلة كثيرة.

الدلالة السنيَّة على أن السُّنَّة من الوحي:

وهذا له وجوه كثيرة ومنها:

- قوله ﷺ "**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**"[(١)]؛ فالمثل هذا هو: السُّنَّة.
- قوله ﷺ: "**إن الروح الأمين قد أَلقىَ في رُوْعِي**"[(٢)]، والروح الأمين هو جبريل ﵇، وأَلقىَ في روع النبي ﷺ أي: القلب أو الفؤاد، وفي رواية: "**إن رُوحَ القُدُس قد نَفَث في**

(١) أخرجه أبو داوود في سننه (٤٦٠٤)، وأحمد في المسند (١٦٥٤٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧١/٣): "صحيح".

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٣٩)، وابن حِبَّان في صحيحه (٣٢٢٧)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٨/٦): "صحيح بمجموع طرقه".

رُوْعِي"[١]، وفي رواية أخرى: "هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في رُوْعِي"[٢].

قال الشافعي ﵀: "فكان مما أُلقي في رُوعِه: سنَّتُه وهي الحكمة التي ذكر الله".

دلالة الإِجمَاع على أن السُّنَّة من الوحي:

نقل الإمام الشوكاني اتفاق العلماء على أن السُّنَّة المطهرة مستقلَّة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، ونقل ذلك ابن حزم وغيرهم من الأئمة نقلوا الإِجمَاع في ذلك.

دلالة النَّظَر الصَّحِيح على أن السُّنَّة من الوحي:

أولا: أن النقل والعقل دلَّا على عصمة النبي ﷺ عن الخطأ في تبليغ الرسالة وفي كُلِّ ما يُضِيفه إلى الله وينسبُه إليه فهو معصوم، وهذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٣٤)، وابن ماجه في سننه (٢١٤٤)، وأحمد في مسنده (٢٨٥٩٩)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/٧٠٠): "الحديث صحيح وله شواهد تقوِّيه".

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٣٤)، وأحمد في مسنده (١٧٣٦٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/٧٠٠): "صحيح".

لا يستقيم إلا إذا كان ما يقوله ﷺ من السُّنَّة= وحيٌ من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ **لأن الدليل على العصمة قام من جهة كونه ﷺ مبلِّغًا عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى**، لا من جهة أخرى كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة:٦٧]، فعقلًا أن السُّنَّة هي كالقرآن، وكلُّ مَا يَنسِبُه الرسول ﷺ إلى الله ﷻ فإن هذا وحي.

ثانيًا: أن النبي ﷺ هو محل قدوة وأسوة، فلا بد أن يكون كلّ ما صَدَر عنه من أقوال أو أفعال أو تقريراتٍ هي من الوحي، إلا أن يستثني ذلك في بعض المواقف فيقول: هذا اجتهادٌ مني.

والاجتهاد على أحد حالين:

- إما أن يُقَرَّ عليه فيكون وحيًا.
- وإما أن يُهدَى فيه إلى الصواب وبالتالي يكون وحيًا.

المسألة الثانية: أن السُّنَّة محفوظةٌ؛ لأنه وحي.

فهذه السُّنَّة وَجَدَت من الحفظ ما وَجَدَهُ القرآن الكريم؛ لأنه وحي، وعلاقة السُّنَّة وثيقة بالقرآن الكريم شرحًا وبيانًا وتخصيصًا ونَسخًا على قول كثير من أهل العلم، وكما قيل: "حاجة القرآن إلى السُّنَّة أعظم من حاجة السُّنَّة إلى القرآن"؛ فهي الشَّرحُ العمليّ

والتفصيليّ للقران الكريم، فلابد إذا حُفِظ الأصل= أن يُحفظ هذا البيان والشرح والتوضيح؛ ولهذا استدل كثير من العلماء على أن السُّنَّة محفوظة كما قال ابن حزم: "فَصَحَّ بذلك أن كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ الله ﷻ، مضمون لنا أنه لا يَضِيع منه شيء؛ فهو منقول إلينا كلّه، فللّه ﷻ الحجة علينا أبدًا".

وهذا لا يتنافى مع وجود أحاديث ضعيفة أو موضوعة، بل هذا من الحفظ؛ كوننا نعرف أن هناك أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وإلا لاختلط الصحيح بالضعيف بالموضوع، ولقال من شاء ما قال.

وسائل حفظ السُّنَّة:

وكان لحفظ السُّنَّة وسائل متعددة ومتنوعة فمنها:

- ✓ما يرجع للنبي ﷺ وإلى طريقته في تثبيت السُّنَّة في نفوس أصحابه ﭫ.
- ✓ومنها ما يرجع إلى الصحابة ﭫ وشدة عنايتهم بحديث رسول الله ﷺ، وقد شاركهم التابعون لهم بإحسان في كثير من هذه الفضائل.
- ✓ومنها ما يرجع إلى تدوين السُّنَّة في الكتب والمصنفات.

✓ومنها ما يرجع إلى ما وضعه العلماء من القواعد والمَناهِج؛ لحفظ السُّنَّة من الدَّخِيل والموضوع.

أمثلة ذلك: ورد في مثل هذا أمثلة كثيرة ومتعددة ومنها:

أولًا: أثر النبي ﷺ في حفظ السُّنَّة:

كان للنبي ﷺ أكبر الأثَر في حفظ سنته، ولذلك شواهد ووسائل عدة من ذلك:

- **طريقته ﷺ في التَّحدُّث إلى أصحابه ﷺ**؛ فكان ﷺ يُعِيد ما قاله ثلاث مرات؛ كما قال أنس بن مالك ﷺ: "كان ﷺ إذا تكلَّم كلمةً أعادها ثلاثًا حتى يُفهَم عنه"، فكان الرسول ﷺ حريصًا على إفهام أصحابه ﷺ؛ ولذلك كان يُرَدِّد ويُعِيد ما قاله.
- **ومن الوسائل: أن النبي ﷺ كان يَتحدَّث في تُؤَدَةٍ ووضوح؛** كما قالت عائشة ﷺ: "لا يسرد الحديث سردًا، بل لو شاء العادّ أن يُحصِيه أحصاه"، أي: لو أن أحدًا يريد عدَّ كلمات النبي ﷺ لاستطاع ذلك؛ لأنَّ الرسول ﷺ كان يَتحدَّث في تُؤَدَةٍ ولم يكن "يسرد الحديث سردًا"، أي: سريعًا.

- **ومن الوسائل كذلك: أن النبي ﷺ كان يُرَغِّب في طلب العلم وسماع الحديث وضبطه**، ثم أدَائِه إلى غيره مضبوطًا محفوظًا من غير تغيير ولا تبديل؛ كما في الحديث المشهور عن معاوية رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: **"من يُرِدِ الله به خيرا يُفقِّهه في الدين"**[1].

وكذلك حديث: **"من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة"**[2] إلى آخر الحديث.

وكذلك حديث: **"نَضَّر الله امرأً سمع منَّا شيئًا فحفظه حتى يبلِّغه غيره، فرُبَّ حاملِ فقه إلى من هو أَفقَهُ منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"**[3].

- **ومن الوسائل كذلك: تَوَعُّدُه ﷺ الشديد بالنار لمن كَتَمَ عِلْمًا أو كَذَب عليه متعمدًا**، وأَمْرُه الصيانة لحديث النبي ﷺ أن يتقوَّل عليه أحد من الناس بما لم يقله؛ فقد قال رسول الله

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨)، وأبو داوود في سننه (٣٦٦٠)، وابن ماجه في سننه (٢٣٠)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٠٥/١): "صحيح".

ﷺ: "من سُئِل عن علمٍ فكتَمَه ألجَمَه الله بلجامٍ من نار يوم القيامة"(١).

وقوله ﷺ: "من كذب عَلَيَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"(٢).

وكثير من العلماء يُكفِّرون من استَحَلَّ الكذب على النبي ﷺ؛ فهذا التحذير وهذا التشديد كان له أثرٌ عظيم جدًّا في تحرِّي الصحابة ﷺ ومن بعدهم من أهل العلمِ الصدقَ والدقَّة في نسبة الكلام إليه ﷺ لفظًا ومعنًى.

- **ومن ذلك ما قاله عمرو بن ميمون:** "ما أخطأني ابن مسعود ﷺ عشية خميس إلا أتيته فيه"، أي: أن ابن مسعود ﷺ كان له درس كل خميس، وكان يحرص عمرو بن ميمون على حضور هذا الدرس.

قال: "فما سمعته يقول بشيءٍ قطُّ قال رسول الله ﷺ" أي: أن ابن مسعود ﷺ إذا ذَكَر حديثًا يُنسب إلى النبي ﷺ ولم يكن

---

(١) أخرجه أبو داوود في سننه (٣٦٥٨)، والترمذي في سننه (٢٦٤٩)، وابن ماجه في سننه (٢٦١)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٦٠٥): "صحيح".

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١).

ضابطًا للألفاظ يتحرّى ذلك، قال: فلما كان ذات عشية قال: "قال رسول الله ﷺ"، فنكَّس ابنُ مسعود رأسَه، قال: فنظرتُ إليه فإذا هو قائم محلَّلة أزرَار قميصه قد غرِقت عيناه وانتفخَت أَودَاجُه"، وكل هذا خوفًا من أن يَنسِب إلى النبي ﷺ ما لم يقله! ثم قال ابن مسعود: "أو دون ذلك، أو فوق ذلك أو قريبًا من ذلك أو شبيهًا بذلك"، أي: اعتبروا ما سمعتموه أنه هو قول النبي ﷺ أو قريبًا منه أو شبيهًا به، فهذا كله من باب التحرِّي ألَّا يَنسِبَ إلى النبي ﷺ شيئًا لم يقله.

- **ولهذا أيضا كان أنس** رضي الله عنه إذا فرغ عن حديث رسول الله ﷺ يقول: "أو كما قال رسول الله ﷺ".

ثانيًا: أثر الصحابة رضي الله عنهم في حفظ السُّنَّة:

ولذلك أمثلة كثيرة:

الوجه الأول: ما اختص به الصحابة رضي الله عنهم من شدة الحرص على حديث رسول الله ﷺ وعظيم الاهتمام به والعناية به.

مثال: فقد أخرج البخاري رحمه الله أنه قال: قيل لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: "ائذن لي أيها الأمير أُحدِّثك قولًا قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، **سَمِعَته أُذُنَاي وَوَعَاهُ قَلبِي وأبصَرَتهُ عَينَاي حِينَ تكلَّم به**"، فانظروا إلى هذا الرجل كيف يصف تلقِّيه عن

النبي ﷺ الحديث، فكل أدوات الاستقبال عنده تَهَيَّأت لتلقِّي الحديث عن النبي ﷺ!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: من أَسعَد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟: قال: **"يا أبا هريرة لقد ظَنَنت ألَّا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لِمَا رأيتُ من حرصِك على الحديث"**[(١)]؛ فهذه الشهادة منه ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه أنه من أَحرَصِ الناس على الحديث.

الوجه الثاني: من وسائل حفظ الصحابة كذلك مذاكرتهم مع الرسول ﷺ، ومع بعضهم البعض، ومراجعتِه ﷺ فيما أشكل عليهم فهمه.

مثال: عن أبي مُلَيكة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ كانت لا تسمعُ شيئًا لا تعرفُه إلا رَاجَعت فيه حتى تعرفَه.

وأنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث فإذا قُمنَا تَذَاكَرنَاه فيما بيننا حتى نحفظَه".

كما أن النبي ﷺ حينما يأتيه الوحي يجمع الصحابة ويتلو عليهم ويكتب عنه الكتَبَة، ويراجع مع الكتَبَة، وجبريل عليه السلام يأتي

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩)

ويراجع مع النبي ﷺ كل هذا للمحافظة على القرآن، **أيضًا الصحابة كانوا يفعلون ذلك مع الحديث فيراجعونه مع بعضهم البعض.**

الوجه الثالث: **دعاؤُه ﷺ لبعض أصحابه بالتَّمكُّن**؛ فهناك بعض الصحابة لهم خصوصيّة.

مثال: أبو هريرة رضي الله عنه راوية الإسلام؛ فقد شَكَى أبو هريرة إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله إني أسمع منك حديثًا كثيرًا أنسَاه"، فقال له النبي ﷺ: **"ابسط رداءك"** قال: "فبسطتُه"، فغرَف بيديه ثم قال: **"ضُمَّه"** فما نسيت شيئًا بعده"[1].

الوجه الرابع: ومن الوسائل **احتياط الصحابة في رواية الحديث وتثبُّتهم في قبوله**؛ فالحديث رواية وقبول، فكانوا يَتثبَّتون ويحتاطون في ذلك سواءً إذا رَوَوْا الحديث أو تلقَّوه؛ وذلك خشية الوقوع في الخطأ، والصيانة للسنة من الدَّخيل.

مثال: يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى: "أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا وَدَّ أن أخاه كَفَاه"؛ **ولهذا ورد أنهم كانوا يَتَدافَعُون الفُتيا،**

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩).

ولا يحدِّث أحدُهم حديثًا إلا يودُّ أن أخاه كَفَاه، وهذا كله من باب التحرِّي.

وكان أنس ﵁ إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ حديثًا ففرغ منه قال: "أو كما قال رسول الله ﷺ"، ولهذا الأمر أحداث ووقائع كثيرة في سيرتهم.

الوجه الخامس: ومن الوسائل التي تُحافظ على السُّنَّة: **الرحلة في طلب العلم وطلب الحديث، والحرص على العلو في الإسناد**، فكان الصحابة ﵃ يسافرون في طلب الحديث، حتى لو كان حديثًا واحدا.

مثال: روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: "بلغني حديث عن رجل سمعه من الرسول ﷺ ..." مع أن جابر بن عبد الله ﵄ صحابي، لكن تَعدَّدت طرق سماعهم للحديث فكانوا يسمعون الحديث إما من الرسول ﷺ، أو من بعضهم؛ فهذا مثال على ذلك، قال جابر ﵁: "**فاشتريتُ بعيرًا ثم شَدَدتُ عليه رحلي فسِرتُ إليه شهرًا**" فهو أنفق المال والوقت في طلب العلوِّ في الإسناد ولأن يسمع الحديث ممن سمعه من الرسول ﷺ؛ لأن هذه الحادثة كانت بعد وفاة النبي ﷺ، وإلا لو كان النبي ﷺ حيًّا وقتها

لسمع من النبي ﷺ، قال: "فَسِرتُ إليه شهرًا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس رضي الله عنه فقلتُ للبوَّاب الذي في الباب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يَطَأُ ثوبه فاعتَنَقَني واعتَنَقتُه" وكلاهما صحابي، فقلتُ: "حديثٌ بلغني عنك أنك سَمِعتَه من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمعَه، فقال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا" الحديث(١).

الوجه السادس: ومن الوسائل كذلك: **كتابة بعض الصحابة الحديث عن رسول الله ﷺ وذلك في عصره.**

مثال: فعل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وحتى لما نَهَته قريش اشتكى إلى النبي ﷺ قال له: **"اكتب، والذي بعثني بالحق لا يخرج منه إلا حقًّا"**(٢)، وشهد أبو هريرة رضي الله عنه بكتابة عبد الله هذا رضي الله عنه، فقال: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحدٌ أكثر حديثًا عن النبي ﷺ مني -أي: من أبي هريرة رضي الله عنه- إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٠٤٢) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٢/١): "إسناده حسن".

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٣)، ومسلم (٢٣٧٩).

يكتُب ولا أَكتُب"؛ فأبو هريرة ﷺ كان يعتمد على حافظته، وعبد الله بن عمرو إلى جانب الحافظة كان يَكتُب، وكانت له صَحِيفَة تسمى: الصَّادقة، أي: كل ما فيها حق وصدق.

ثالثًا: أثر التابعين ومن بعدهم من أهل العلم في حفظ السُّنَّة:

توَاصَلَ حفظُ السُّنَّة أيام التابعين ومن بعدهم؛ فهناك اهتمام عظيم بالسُّنَّة، ومن ذلك أنهم:

- حرصوا على حفظ السُّنَّة وتوثِيقها وضبطها.
- وتَثبَّتوا في قبولها، واحتَاطوا في روايتها بكل وسيلة تطمئن إليها القلوب.
- وكَثُرَت فيهم الرحلات طلبًا للحديث والعلوِّ في الإسناد، واشتهر ذلك عنهم.

مثال: قال أبو العالية ﵀: "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة، فلا نرضى حتى نركب إلى المدينة نسمعها من أفواههم" فهذه الرحلة في طلب الحديث وطلب العلم.

- وكذلك استعانوا في ذلك بالمذاكرة والكتابة، مع ما لديهم من الدِّقة في الحفظ والضبط، ومع التقوى والورع ما يجعلهم أبعد الناس عن الخوض في دين الله من غير علم ولا هدى.

مميِّزات مرحلة التابعين لحفظ السُّنَّة:

تميزت هذه المرحلة بأمور عدة، من ذلك:

١- تدوين السُّنَّة:

فبدأ تدوينها وكتابتها وجمعها في عهد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، وذلك حين أمر العلماء من أمثال أبي بكر بن حزم وابن شهاب الزهري وغيرهم بجمع حديث رسول الله ﷺ؛ وذلك خشية دروس العلم، أي: ذهاب العلم واختفائه، واعتبر العلماء تدوين عمر رَحِمَهُ اللهُ هذا **أول مرحلة في تدوين السُّنَّة.**

ثم جاء عصر التصنيف فصُنِّفت الأحاديث في الكتب الجوامع وفي المسانيد:

- **إما بحسب الأبواب**: الإيمان، الصلاة، الجهاد إلى آخره، كما فعل الإمام مالك في الموطأ والبخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن.
- **وإما بحسب الصحابة** وهي التي تعرف بالمسانيد، كمسند الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللهُ وغيره من أصحاب المسانيد.

٢- صيانة السُّنَّة النبوية من الدَّخِيل مما لا يليق بها.

وتقدَّم الذِّكرُ عن عناية الصحابة بحديث رسول الله ﷺ احتياطًا في روايته وتثبُّتًا في قبوله؛ وذلك خوفًا مما قد يطرأ من الغفلة أو الوهم غير المقصود، فلم يكن بعضهم يكذِّب بعضًا، حتى أطَلَّت الفتنة برأسها بعد مقتل عثمان رضي الله عنه **وظهر الكذب على رسول الله ﷺ لدواعٍ عدة:**

- إما بدافع التعصُّب لمذهبٍ ما والانتصار له.
- أو لتأييد بدعةٍ ما أراد أصحابها لها أن تنتشر.
- أو بدافع الحقد على الإسلام والضغينة عليه.
- أو بدافع التكسُّب الماديِّ الذي يكون بسبب الجهل، مثل ما وقع من بعض الزهاد ونحوهم.

إلى آخره من الأسباب؛ فكل ذلك ونحوه حَمَل العلماء النُّقَّاد والجهابذة والمتجرِّدين منهم على تتبع الأحاديث ومعرفة طرقها ورواتها وأحوالها من العدالة والضبط، أو ما يُضادُّها متقيِّدين في ذلك بآداب عُليا وقواعد حكيمة.

قال الإمام الترمذي رحمه الله: "فما حملهم -أي: المحَدِّثين- على ذلك عندنا -والله أعلم- إلا النَّصيحة للمسلمين، لا نظن أنهم أرادوا

الطعن على الناس أو الغيبة"، **فهذا من باب الحرص؛ ولهذا جعلوا الإسناد من الدين.**

والكلام على الروايات وإن كان قد بدأ في عهد النبوة إلا أنه كان في أضيق نطاق؛ فالوحي ما زال ينزل والرسول ﷺ بين ظهراني أصحابه ﷺ، وإنما اتسع ذلك في العهود التالية لعهده ﷺ؛ حيث كَثُر السهو وعظمت الغفلة، **وبدأ الكذب والامتحان يظهر في الناس ولا سيَّما بعد ظهور البدع والفتن**؛ ولهذا اشتدت العناية بدراسة الحديث سندًا ومتنًا، ونظام ذلك في كتب الرواية وكتب الحديث وكتب الأسانيد والكلام عن الرجال إلى آخره.

وهذا تراثٌ عظيم يَفتَخِر به المسلمون في كل عصر: أَنَّهم حافظوا على دين نبيهم ﷺ.

الدَّرسُ الخَامِس

المصدر الثاني: السُّنة النبوية (٢)

المسألة الثالثة: حجِّيَّة السُّنَّة النبوية:

وهذه قضية مهمة جدًّا وهي: أن السُّنَّة حجة في باب الاعتِقَاد وفي باب الأحكام، مثلها مثل القرآن الكريم؛ ولهذا حُفِظَت وعُنِي العلماء بها أيَّما عناية.

الأدلة على حجِّيَّة السُّنَّة:

والأدلة على حجِّيَّة السُّنَّة كثيرة، وهي ترجع إلى الكتاب والسُّنَّة نفسها وإجمَاع المسلمين، وإلى النَّظَر الصَّحِيح أي: الاستِدلَال العقلي، ونُفصِّل في ذلك تِباعًا.

أولًا: الدليل على حجِّيَّة السُّنَّة من القرآن الكريم:

كون السُّنَّة حجة ذُكِر في القرآن الكريم كثيرًا، من ذلك:

الأول: أن الله ﷻ جعل طاعة رسوله ﷺ من طاعته، ومن ذلك:

- قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].
- وقرن الله طاعته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بطاعة رسوله ﷺ فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].
- فالأمر بطاعة الله ﷻ من خلال القرآن، وطاعة النبي ﷺ من خلال السُّنَّة أيضا؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وهذا كان معروفًا ومعمولًا به في عصور المسلمين كلها، إلا من شذَّ من أهل البدع.

الثاني: أن طاعة النبي ﷺ كطاعة الله ﷻ؛ ولهذا حذَّر الله ﷻ مخالفة رسوله ﷺ وتوعَّد من خالف بالخلود في النار ودل على ذلك:

- قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، والفتنة فُسِّرت بأنها القتل وفسِّرت بأنها الشرك إلى غير ذلك.
- وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

- وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

الثالث: جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طاعة رسوله ﷺ من لوازم الإيمان، وجعل مخالفته من علامات النفاق.

- فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[النساء:٦٥]؛ فالله عز وجل جعل الخضوع لتحكيم النبي ﷺ وما قاله النبي ﷺ من شرط الإيمان، والرضا بذلك وتسليم القلب به ودفع الحرج والضيق والمنازعة من القلب عما يقوله النبي ﷺ.

الرابع: يذكر الله المنافقين الذين خالفوا أمر الله فلم يطيعوه ولا أطاعوا رسوله، بل أظهروا الطاعة وقالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

- فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النور:٤٧]؛ فهذه في شأن المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾[آل

عمران:١٦٧]؛ فيقولون بألسنتهم: آمنا بالله والرسول، لكن الدليل على هذا الإيمان الطاعة والانقياد والالتزام، فأين هو؟

- فقال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١].
- ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

فالله عز وجل أو رسول الله ﷺ إذا قضى أمرا فليس هناك خيار في مخالفة أمر الله أو مخالفة أمر رسوله ﷺ.

الخامس: أمر سبحانه وتعالى عباده بالاستجابة له وللرسول ﷺ.

- فقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]؛ فالاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ فيه الحياة الحقيقية، فحياة القلوب الإيمان، وحياة الأبدان بالاستقامة، وبالتالي موت هذه القلوب يكون بالكفر.

ثم أمرهم سبحانه وتعالى بردِّ ما تنازعوا فيه إليه عز وجل وإلى الرسول ﷺ فقال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾[النساء:٥٩]، بل

جعل ذلك شرط في صحة الإيمان فقال بعدها: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

ثانيًا: الأدلة السُّنيَّة على حجِّيَّة السُّنَّة:

وهناك أدلة كثيرة من السُّنَّة تدل على حجيتها ومن ذلك:

الدليل الأول: الحديث المشهور قال ﷺ: **"لا ألفَيَنَّ أحدكم متكئًا على أريكتِه يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"**[1]، وكأن النبي ﷺ يُخبِر عن حال من يُسَمَّون بالقُرآنيّين أو المشكِّكين في أحاديث النبي ﷺ أو الرِّادين لها والطاعنين فيها؛ فيخبر عنهم ﷺ أنه سيأتي زمن فيأتي أحدهم ويقول: لا ألتزم بالسُّنَّة ويطعن في السُّنَّة؛ ولهذا جاء في رواية: "أن ما حرم رسول الله كما حرم الله".

الدليل الثاني: ما رواه أبو داود عن العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبَل علينا فوعَظَنَا موعظةً

(١) أخرجه أبو داوود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣) وقال الألباني في صحيح الجامع (١٢٠٤/٢): "صحيح".

بليغة وفيها: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين تمسَّكوا بها وعُضُّوا عليها بالنواجذ" إلى آخر الحديث[(١)].

الدليل الثالث: حديث في حجَّة الوداع، وحجة الوداع فيها دلالات خاصة؛ فهذا آخر عهد النبي ﷺ بالناس قال: "يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضلُّوا أبدًا: كتاب الله وسنتي"[(٢)]، فذكَرَ القرآن وذكر السُّنَّة، وهذا يقتضي أن السُّنَّة باقيةٌ ما بَقِيَ الكتاب محفوظةٌ ما حُفِظَ الكتاب -وهو القرآن-.

الدليل الرابع: قوله ﷺ: "نضَّر الله أمرأً سمع منا شيئا فبلَّغه كما سمع، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع".

إلى آخر الأحاديث التي تدل على حجيتها.

ثالثًا: دلالة الإِجمَاع على حجِّيَّة السُّنَّة:

وكثير من العلماء ذكروا الإِجمَاع على حجِّيَّة السُّنَّة؛ **كالإمام الشافعي حيث قال**: "ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحدا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١٤٤)، وأبو داوود في سننه (٤٦٠٧)، وابن ماجه في سننه (٤٢) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/٥٢٦): "إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات".

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

أُخبِرَ عن رسول الله ﷺ إلا قَبِلَ خبره وانتهى إليه وأثبت ذلك سنة، وصنع ذلك الذين بعدهم من التابعين والذين لقيناهم، كلُّهم يُثبتوا الأخبار ويجعلها سنةً يُحمَدُ من تبعها ويُعَاب من خالَفها، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مُفَارِقَ سبيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل العلم بعدهم إلى اليوم، وكان من أهل الجهالة"، وذكر مثل كلام الشافعي كثيرٌ من العلماء.

رابعًا: دلالة النَّظَر الصَّحِيحِ على حجِّيَّة السُّنَّة:

ودل النَّظَر الصَّحِيحِ على حجِّيَّة السُّنَّة؛ إذ كون النبي ﷺ رسول الله يقتضي:

- ✓ تصديقه في كل ما يخبر به.
- ✓ وطاعته في كل ما يأمر به.

ومن المسَلَّم به أنه ﷺ قد أخبر وحَكَمَ بأمور زائدة على ما في القرآن الكريم؛ فالتفريق بينها وبين القرآن في وجوب الالتزام بها والاستجابة لها تفريق بما لا دليل عليه، **بل هو عين التحَكُّم**.

ومرَّ بنا أننا لا نستطيع أن نصلي ولا أن نصوم ولا أن نأتي بكثير من الأحكام التشريعية من غير الرجوع إلى السُّنَّة؛ **فهي وردت**

في القرآن عُمُومَاتٌ وخطوطٌ عريضة، وتفاصيل ذلك إنما ورد في السُّنَّة.

إفادة خبر الواحد العلمَ والحجة:

وهذه مسألة مهمة ولها علاقة عظيمة بمسألة الاحتجاج، **فهل يفيد خبر الواحد العلم؟ وهل يحتج به؟**

فالسُّنَّة إما متواتر وإما آحاد، والمتواتر لا إشكال فيه، لكن الآحاد هو الذي ينزل عن درجة التواتر.

وهذه المسألة فيها ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: من يقول: خبر الواحد يفيد العلم مطلقًا، أي: العلم اليقيني القطعي؛ فيُقطَع بأن الرسول ﷺ قاله.

الاتجاه الثاني: أن خبر الواحد يفيد العلم واليقين والقطع لكن بشروط.

الاتجاه الثالث: أن خبر الواحد لا يفيد العلم مطلقًا.

فالمذهب الأول ضد المذهب الثالث، **والوسط هو المختار.**

فالأول يقول: إن خبر الواحد يفيد العلم مطلقا هكذا، وهذا ضُعِّف؛ لأنه لا يُتَصور أن كل من نَسمَع خبره ويُسمَع كلامه

يُصَدَّق؛ ولهذا قالوا: "لا يوجد أحد من العقلاء يقول إن خبر كل واحد يفيد العلم"، أي: العلم اليقيني.

أما المذهب الثاني، فالشروط مثل الخبر المحتَفِّ بالقرائن والدلائل والملابسات.

والقرينة قد تتعلق بالخبر والمُخبِر على تفاوت:

- فهي قد تتعلق بالخبر نفسه.
- وقد تتعلق بالمخبِر أي: الذي تحدث بهذا الخبر.
- وقد تتعلق بالأمرين سواء؛ ففي علم الحديث يدرسون السند والمتن، فالقرينة إما أن تتعلق بالسند أو أن تتعلق بالمتن.

ويدخل في الأخبار المُحتفَّة بالقرائن:

- **الخبر المستفيض الذي رواه في أصله واحد**، لكنه استفاض واشتهر بين أهل العلم.
- **ومنها الخبر المُتَلَقَّى بالقبول عند الأمة**، كما أن الأمة تلقَّت صحِيحَيْ البخاري ومسلم؛ فهذا يجعل الخبر له قيمة علمية.
- **ومنها الحديث المسلسل بالأئمة الحفاظ** مثل: مالك عن نافع عن ابن عمر؛ فهذه يسمونها بالسلسلة الذهبية.

فإذًا الخبر الذي يفيد العلم هو الخبر الصحيح الذي يحْتَفُّ بالقرائن.

أدلة إفادة الخبر الصحيح المحتف بالقرائن العلم، منها:

- **أن التفريق بين التواتر والآحاد مسألة مستحدثة،** لم تكن معروفة لا في عصر الصحابة ﷺ ولا في عصر التابعين، ولا يدل عليها قرآن ولا سنة؛ فالمؤمنون صَدَّقوا الرسول ﷺ في كل ما أخبر به دون حاجة منهم إلى تواتر، فكان الصحابة ﷺ يجلسون عند النبي ﷺ زُرَافَات ووِحْدَانًا، وكانوا يصدِّقونه؛ ولهذا الله ﷻ أرسل رسله آحادًا، وبالتالي هم حُجَّة على الناس فيما يخبرون به.
- **أن الصحابة ﷺ كانوا يصدِّق بعضهم بعضًا فيما يخبرون به عن رسول الله ﷺ ولم يطالبوا بالتواتر،** كما مرَّ بنا أن جابر بن عبد الله ﷺ رحل في طلب الحديث شهرًا كاملًا من شخص واحد، ولم يشترط عليه التواتر؛ لأن هذه المسالة مُتعذِّرة وغير ممكنة، فما يهتمون به هو: صدق المخبر.

فالخبر عند الصحابة إذا صح وصحت نسبة الخبر إلى المخبِر وكان المخبر صادقًا عادلًا مُحقِّقًا للشروط المعروفة؛ فهو يفيد العلم.

وهذا حتى عند التابعين، فكانوا يتلقَّون الأخبار من الصحابة كيفما اتفق ويأخذون عنهم العلم، ويُصدِّقونهم فيه دون طلب حصول التواتر، وهكذا جلس كل عالم أو إمام يعلِّم طلبته وتلاميذه العلم، وهم يصدقونه على ذلك وهو فرد واحد.

فالقول بعدم إفادة خبر الواحد العلم يُعطِّل الدين والدنيا، وهو خرق صريح لإِجمَاع الصحابة.

- **ومن الأدلة كذلك: أن الرسول ﷺ كان يبعث الآحاد من أصحابه إلى الملوك وإلى الوُلاة لتعليم المسلمين**، وكان كلامهم حجة، وكان الناس يستمعون إليهم ويَقبَلون كلامهم دون شرط التواتر.
- ومن الأدلة: أن المسلمين لما كانوا في قباء في صلاة الصبح أو في صلاة العصر -كما جاء في روايات-، فجاء واحد أخبرهم أن القبلة قد تحوَّلت إلى الكعبة، وكانوا يصلُّون إلى بيت المقدس، **فقبِلُوا خبره وتركوا الصلاة التي كانوا عليها** -وهي كانت صلاة شرعية وبحجة شرعية ومقطوع بها- واستداروا إلى القبلة الجديدة استجابةً لأمر الله ورسوله ﷺ،

وكان المبلِّغ لهم واحدًا، فلم يطالِبوا تواترًا ولم ينكر النبي ﷺ عليهم، بل شُكِروا على ذلك.

فالخلاصة: المذهب الثاني الوسط هو الصحيح.

أما المذهب الثالث وهو: أن خبر الواحد لا يفيد العلم سواء اقترن به قرينة أم لا فهذا مذهب ضعيف، وهذا هو المشهور عند كثير من المتكلمين، فيعتبرون أحاديث الآحاد لا تفيد العلم مطلقًا، ومذهبهم هذا عكس المذهب الأول الذي يقول إنه يفيد العلم مطلقًا.

فالأول غير سديد وغير صحيح، والثاني ضعيف وبالتالي عندهم أحاديث العقيدة لا يحتجُّ بها.

مسألة الاحتجاج بخبر الواحد في مسائل الاعتِقَاد:

مذهب المتكلمين من المعتزلة وغيرهم:

أما مسألة الاحتجاج بخبر الواحد فمثار الجدل عند المتكلمين من المعتزلة وغيرهم: **أنهم لا يحتجون بخبر الواحد في مسائل الاعتِقَاد.**

ونحن نعرف أن السُّنَّة نوعان: متواتر، وآحاد، والمتواتر لا إشكال فيه وإن كان قليلًا جدًّا بالنسبة للسنة الآحاد، لكن لو حذفنا السُّنَّة الآحاد عن الاحتجاج لتعطَّل كثيرٌ من السنن، وتعطل كثير من الأخبار الاعتِقَادية التي لم ترد في القرآن الكريم.

مثال: **ما يتعلق بحالة البرزخ وعذاب القبر ونحوه**، وكثير من تفاصيل المعاد ويوم القيامة والجنة والنار؛ فهذه التفاصيل لم ترد في القرآن الكريم وإنما وردت في السُّنَّة.

والذين ذهبوا إلى أن خبر الواحد لا يفيد العلم مطلقا بَنَوا على ذلك أنه: لا يجوز الاحتجاج به في مسائل الاعتِقَاد؛ لأن مسائل الاعتِقَاد عندهم يقينية -وهذا صحيح أنها مسائل يقينية- فإذًا لا يطلب فيها إلا القطع؛ ولهذا المعتزلة لا يقبلون خبر الواحد في الاعتِقَادات، **إلا إذا جاء موافقًا للعقل**.

وموافقة العقل هذه إشكالية؛ فما يسمونه عقلًا أو قضية عقلية أو دليلًا عقليًّا قد لا يكون كذلك.

وحتى إذا وافق العقل فهم يستدلون بخبر الواحد تعضيدًا واستئناسًا لا احتجاجًا، وإلا الحجة عندهم في مسائل الاعتِقَاد العقل.

وحتى القرآن الكريم لو خالف ما قرَّروه عن طريق العقل فالقرآن عندهم يُؤَوَّل حتى يتفق مع العقل.

فالخلاصة: أن الحديث عندهم إذا وافق العقل قالوا به، لكن استئناسًا وتعظيمًا وتكريمًا، وحتى إذا كان حديثًا متواترًا لا يُرَد لكن يمكن أن يؤوَّل كما تأولوا القرآن الكريم، وهنا تكمن الخطورة.

مذهب السلف في الاحتجاج بخبر الواحد:

أما السلف فمذهبهم: أن الخبر حتى ولو كان آحادا، إذا توفرت فيه شروط الصحة المعروفة الخمسة، واحتف بقرائن القبول -وهي كثيرة ومتنوعة كالخبر إذا تلقته الأمة بالقبول، والخبر الوارد في صحيح البخاري ومسلم، والخبر المسلسل بالأئمة الحفاظ إلى غير ذلك من القرائن- فيكون هذا الخبر مقبولًا ويقينيًّا، ويُستدل به في مسائل العقائد كما يُستدل به في مسائل الأحكام.

وبنوا على ذلك على أمور، وهي:

١- أن التفريق بين العقائد والأحكام في الأخذ بأخبار الآحاد بدعة لا وجود لها عند السلف، بل سيرة السلف وتصانيفهم تُثبت عكس ذلك تمامًا، يقول ابن القيم رحمه الله: "وهذا التفريق -أي: بين العقائد والأحكام في قضية خبر الواحد- باطل

بإِجمَاع الأمة، فإنه لم تزل تحتجّ بهذه الأحاديث في الخبريات وفي العمليات".

فهذا التفريق حادث لا وجود له عند الأوائل، ولم يزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم يُنقَل عن أحد منهم البتة أنه جَوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار.

٢- ما تواترت به الأخبار عن النبي ﷺ في إرسال الرسل والدعاة آحادًا إلى أطراف البلاد؛ فالرسول ﷺ كان يرسل رسله: إما إلى الملوك كملوك الفرس والروم وغيرهم، وإما لتعليم الناس ودعوتهم، فكان يرسلهم آحادًا، وكان قولهم حجة، وقولهم كقول النبي ﷺ.

مثال: إرساله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فقال له: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله عز وجل" إلى آخره[1]، ومعاذ واحد وبكلامه تقوم الحجة على أهل اليمن.

٣- أن التفريق بين العقائد والأحكام في الأخذ بخبر الواحد إنما بُنِيَ على أساس باطل وهو: أن العقيدة لا يقترن بها عمل، فقالوا: العقائد أخبار ما فيها أعمال، وأما الأحكام العملية فلا تقترن بها العقيدة.

ففرقوا بينهما فلا العقيدة فيها عمل، ولا الأحكام العملية فيها عقيدة، وهذا التفريق غير صحيح، وهو من البدع المحْدَثة، **بل كل عقيدة تتضمن عملًا، وكل حكم شرعي يتضمن عقيدة.**

مثال: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ﴾ [النور:٢]؛ هذا حكم عملي لكن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فربط الحكم العملي بعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

الخلاصة:

أن السُّنَّة أحد مَصَادِر التشريع، وأن مسائل الاعتِقَاد من الشريعة، وأن السُّنَّة لقيت من الحفظ والعناية ما يجعلها مصدرًا صحيحًا سليمًا من مَصَادِر العقيدة، وأنها كالقرآن الكريم في الاحتجاج سواء كانت متواترة أو كانت آحادا.

ومن حاد عن هذا المسلك فقد ضل سواء السبيل.

الدَّرسُ السَّادِس

المصدر الثالث: الإِجمَاع

مسائل الإِجمَاع في العقيدة هي:

١- تعريفُ الإِجمَاع.

٢- حجِّيَّة الإِجمَاع.

٣- الإِجمَاع في أبواب الاعتِقَاد.

المسألة الأولى: تعريف الإِجمَاع:

وردت للإِجمَاع تعاريف كثيرة، والتعريف الذي نراه جامعًا هو قولهم: **اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على أمر من الأمور.**

محترزات التعريف:

- (بعد وفاته)؛ لأنه لا إِجمَاع أثناء النبوة، فالنبوة هي مصدر التشريع الوحيد.
- (في عصر من العصور)؛ أيًّا كانت هذه العصور، وإن كانوا يقولون: إن الإِجمَاع المنضَبِط هو إِجمَاع الصحابة ﷺ؛ لأن

عددهم كان محصورًا ومحدودًا وكانوا معروفين بالاسم، لكن مع ذلك يظل الإجمَاع حجة في كل العصور.

- (على أمر من الأمور) قالوا: الأمور هنا تشمل الأمور الشَّرعيَّة والأمور الدنيويَّة، لكن المقصود في مسائل العقيدة: الأمور الشَّرعيَّة.

المسألة الثانية: حجِّيَّة الإجمَاع:

وهذه المسألة تناقش سؤال: **هل الإجمَاع حجةٌ شرعيَّةٌ كما القرآن الكريم أو السُّنَّة النبوية؟**

جماهير العلماء على أن الإجمَاع حجة شرعية، وحكى بعضهم الاتفاق على هذه المسالة أي: الإجمَاع على أن الإجمَاع حجة.

الاستِدلَال على حجِّيَّة الإجمَاع من القرآن:

ويستدل على الإجمَاع بأدلة من القرآن الكريم من ذلك:

✓ استدلال الإمام الشافعي ﷺ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وهذا الدليل يُعتبرُ من أقوى الأدلة على حجِّيَّة الإجمَاع.

والشافعي رضي الله عنه يرى أن وجه الدلالة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جمع بين مُشاقَّة الرسول ﷺ وبين مخالفة سبيل المؤمنين، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فجمع بين الأمرين، ولو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحًا لما جَمَع بينه وبين المحظور، فما دام عطف اتباع غير سبيل المؤمنين إلى مُشاقَّة الرسول ﷺ= فتأخذ حكمها، فمُشاقَّة الرسول ﷺ غير مباحة، بل محرمة، وكذلك اتباع غير سبيل المؤمنين يكون محرمًا.

✓ ومن الأدلة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، والوسط معناها: الخيار العدل كما جاء في كتب التفسير.

ووجه الدلالة من الآية: أنه لما كان قول الشاهد الواحد حجة كان قول الأمة وإِجمَاعها حجة، فيجب العمل بمقتضاه.

قال ابن تيمية رحمه الله: "فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فإذا شهدوا أن الله أَمَرَ بشيء فقد أَمَرَ به".

وكما جاء في بعض الروايات: "ما رآه المسلمون حَسَنًا فهو عند الله حسَن"، وقال: "وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه"، وكذلك إذا شهدوا أن الله أخبر بشيء فقد أخبر به.

الاستِدلَال على حجِّيَّة الإجمَاع من السُّنَّة:

ومما يستدل به على حجِّيَّة الإجمَاع: السُّنَّة ومن ذلك:

✓ **حديث عمر** ﷺ أنه خطب الناس بالجابية فقال: "إن رسول الله ﷺ قام فينا كمقامي فيكم وقال: **"أكرموا أصحابي فإنهم خِيارُكم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"** إلى أن قال: **"ألا فمن سرَّه بَحبُوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد وهو من الاثنين أبعد"**(١).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تأمر بلزوم جماعة المسلمين وتحذِّر من الفُرقَة؛ فهذا مما يُستدل به.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٠)، وأحمد في مسنده (١٧٧) باختلاف يسير، والترمذي في سننه (٢١٦٥)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٦/٢١٥): "هو كما قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين".

✓ ثم يُستَدل بالأحاديث الكثيرة التي تفيد عصمة الأمة في اجتماعها، **فتُقرِّر الأحاديث الكثيرة أن الأمة معصومة في اجتماعها عن الضلال والخطأ** -والخطأ نوعٌ من الضلال-، وعصمتها هنا تكون فيما تقوله وتقرُّ به وتأمر به أو تنهى عنه، وبعض العلماء ذكر أن هذه الأحاديث التي تفيد عصمة الأمة تصل إلى حدّ التّواتر المعنوي.

ومن ذلك قوله ﷺ: **"إن الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار"**[(١)]، فهذه الأحاديث المتواترة معنًى لا لفظًا، أفادت عصمة الأمة عن الضلال، فلَزمَ أن يكون قولُها موافقًا للحق، وهذا يقتضي كونه حجة.

ولم يزل الصحابة ﵃ والتابعون ومن بعدهم يستدلون بهذه الأحاديث في إثبات الإِجمَاع.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٩)، والترمذي في سننه (٢١٦٧)، والنسائي في السنن (٨١٤٩)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٢/١): "صحيح".

دلالة النَّظَر الصَّحِيح على حجِّيَّة الإجمَاع:

دل النَّظَر الصَّحِيح على حجِّيَّة الإجمَاع، فقد ثبت قطعًا أن النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء، لكن شريعته دائمةٌ إلى قيام الساعة، فلم تنتهِ شريعته بموته وإنما تدوم إلى قيام الساعة، وهي الحجة الباقية على الناس.

لكن حوادث الناس لا تنقطع، والنصوص كما قال العلماء متناهية محدودة؛ فالقرآن مائة وأربعة عشر سورة والأحاديث محدودة، لكن الحوادث والوقائع تتجدد كل يوم، وكل فترة يستجد للناس أمور لا بد فيها من نص قاطع، لكن النصوص محدودة= **فكان الإجمَاع ضروريًّا** كما في أدلة الأحكام من قياسٍ واجتهاد واستصحاب؛ فكل هذا يتَّسِق مع دَيمُومة الشريعة.

ألا تستطيع الشريعة بما فيها من مرونة وقياسات واستصحاب ومصالح مرسلة إلى غير ذلك من أدلة الأحكام أن تستوعب كل المسائل المستجدة في حياة الناس؟!

وإن كانت مسائل العقيدة مسائل محدودة؛ لأنها تقوم على الخبر الغيبي فلا ينفع فيها الإجماع، فمسائل العقيدة كلها غيبيات:

كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره؛ **فهذه الأمور كلها غيبيات تحتاج إلى نص**، **فالأمور الغيبية لا ينفع فيها الإِجمَاع فهي ليست أمورًا اجتهاديَّة**، وإنما أمور تعتمد على النصوص من الكتاب والسُّنَّة.

المسألة الثالثة: فائدة الإِجمَاع في مسائل الاعتِقَاد:

أما فائدة الإِجمَاع في مسائل الاعتِقَاد: أنه يؤكد عليها، فمثلًا:

- لو كان النص ضعيفًا فبالإِجمَاع يتقوَّى.
- ولو كان ظنيًّا بالإِجمَاع يكون قطعيًّا.
- وإن كان يحتمل أكثر من دلالة فبالإِجمَاع تحدد دلالة واحدة.

فالإِجمَاع في مسائل العقيدة يكون من باب تظافر الأدلة، وإلا فإن العقيدة مبناها على النص؛ لأنها مسائل خبرية وغيبية، ولا يستطيع الإنسان أن يتكلم في الأمور الغيبية إلا بدليل.

فالإِجمَاع هنا من باب تظافر الأدلة وتكاثرها وتأكيد صحتها؛ لأن مسائل العقيدة لا قياس فيها ولا مجال فيها للرأي.

إذًا؛ **المقصود في باب الإجمَاع أن الإجمَاع يدخل في أبواب الاعتِقَاد لتعضيد الأدلة وتقويتها**؛ لدفع احتمال الخطأ الذي قد يتطرق للظَّنِّيات فيرتفع بفضل هذا إلى مقام القطعيَّات.

وقد حكى الإجمَاع في أبواب الاعتِقَاد علماء الإسلام كما فعل أبو محمد ابن حزم في كتابه مراتب الإجمَاع، وقد وافقه ابن تيمية على ذلك وإن كان قد خالفه في بعض المسائل التي ادَّعى فيها الإجمَاع.

فالإجمَاع يدخل في باب العقائد من هذا الباب، **فهو يؤكد ويقرر ويرفع الظن عن بعض النصوص**، لكن لابد للإجمَاع في باب الاعتِقَاد من مستند من كتاب أو سنة.

الخلاصة:

فالمقصود في باب الإجمَاع هو التعريف بالمصدر الثالث من مَصَادِر الاستِدلَال عند أهل السُّنَّة والجماعة، وبيان منزلته وحجيته، وأنه دليل مقطوع به في مسائل الاعتِقَاد لا سيما إجمَاع الصحابة ﷺ؛ لأنه إجمَاع منضبط ومعروف ومحدد، وأن الإجمَاع في أبواب الاعتِقَاد يستند إلى دليل سمعي نقلي من الكتاب أو السُّنَّة، فلا قياس ولا أمارة ولا نحوها من أمور الاجتهاد.

فأهل السُّنَّة في هذا الباب يزنون بهذه الأصول الثلاثة – الكتاب والسُّنَّة والإِجمَاع– جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال سواء:

- **باطنة** ومسائل الاعتِقَاد منها.
- أو **ظاهرة** وهي الأمور العملية مما له تعلق بالدين.

والإِجمَاع الذي ينضبط هو: ما كان عليه السلف الصالح.

الدَّرسُ السَّابِع

المَصَادِر الثانويّة

المصدر الأول: العقل (١)

ثانيًا: المَصَادِر الثانويّة:

بعد أن أنهينا الحديث عن المصَادِر الأساسية والنقلية وهي:

١- الكتاب.

٢- والسُّنَّة.

٣- والإجمَاع.

ننتقل بالحديث عن المَصَادِر الثانوية وهي:

١- العقل.

٢- والفطرة.

فهذان المصدران يُعضِّدان ويُؤَكِّدان العقائد التي تحدثت عنها نصوص الكتاب والسُّنَّة.

❖ المصدر الأول: العقل:

يعدُّ العقل من أهم هذه المِصَادِر الثانوية وفيها مسائل عدة، وسنفصل هنا فيما يتعلق بالاستِدلَال العَقدِيّ.

مسائل مصدر العقل في الاستِدلَال العَقدِيّ:

١- التعريف بالعقل.

٢- منزلة العقل في الإسلام.

٣- العقل أحد مَصَادِر المعرفة.

٤- موقع العقل في مجال الاعتِقَادات.

المسألة الأولى: تعريف العقل:

التعريف الأول:

عرَّفَه بعض العلماء كأبي الوليد الباجي قال: "**العقل هو: العلم الضروري الذي يقع ابتداء ويعم العقلاء**"، فعرَّف العقل بالعلوم الضروريَّة؛ لأن العلوم نوعان:

- **النوع الأول:** علوم ضروريَّة اضطراريَّة.
- **النوع الثاني:** علوم نظريَّة كسبيَّة، تكون بالنظر والتأمل والاستِدلَال والكسب، وتتراكم فيها المعرفة، ويكون على أساسها التفاضل.

فالباجي هنا قَصَر العقل على العلم الضروري الذي يقع اضطرارًا ويعم جميع العقلاء، فما دام فلان عاقل فإذًا هو يتمتع بهذا العقل الضروري.

وهذا التعريف فيه إشكالية؛ لأنه أبعَدَ العلوم الأخرى كالعلوم النظريَّة، **فجعل العقل شاملًا لجميع العقلاء وبالتالي لا يتفاضل العقلاء هنا ولا يمتاز عاقل عن عاقل**، فلا يقال فلان ذو عقل أو فلان عقول.

مثال: ما وصف ابن عباس ﵄ نفسه بأنه نال هذا العلم بلسان سؤول وقلب عقول، فينتفي هنا إذا قصرنا العقل على العلوم الضروريَّة.

التعريف الثاني:

وهو التعريف الذي نختاره وهو الذي ذكره كثير من العلماء كالغزالي وابن تيمية وغيرهم: أن العقل يقع على أربعة معاني:

المعنى الأول: الغريزة المدركة التي تكون في الإنسان ويولد بها؛ فبها يعلم وبها يعقل.

مثال: كقوة البصر في العين والذوق في اللسان.

فهذه الغريزة شرط في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف إذا وجدت كان التكليف الشرعي لهذا الإنسان، فإذا بلغ سن التكليف لابد أن توجد فيه هذه الغريزة، وبالتالي يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فالفرق هذه الغريزة التي هي: العقل.

وهذه مسألة فطرية يولد بها الإنسان.

المعنى الثاني مما يُسمَّى عقلًا: **العلوم الضروريَّة**، وهذا الذي قصد إليه الباجي، وهي التي تشمل جميع العقلاء فلا يمتاز عاقل عن عاقل ولا يختلف عاقل عن عاقل.

مثال: الواحد نصف الاثنين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، إلى غير ذلك من العلوم الضروريَّة التي تكون عند كل العقلاء ولا يتفاضلون فيها، بل هي أساس العلوم الكَسبيَّة.

المعنى الثالث: ومن الأمور التي يطلق عليها العقل: **العلوم النظريَّة** وهي: التي تحصل بالنَّظر والاستِدلَال والتَّأمل والكسب؛ فهذه يتفاضل ويتميز فيها الناس، فيقال: فلان ذكي وفلان عاقل وفلان حصيف إلى غير ذلك من أوصاف التفاضل.

المعنى الرابع: الأعمال التي تكون بموجب هذا العقل، فما فائدة العقل إن لم يَهدِ صاحبه إلى فعل الأمور المستحسنة وترك الأمور المستقبحة؟

ولهذا قال الأصمعي رحمه الله: "العقل هو: الإمساك عن القبيح وقصر النفس وحبسها على الحسن"، فالعاقل لا يفعل قبيحًا، وإنما يحدِّث نفسه على فعل الأمور الحسنة أو المستحسنة.

وقد قيل لرجل وصف نصرانيًّا بالعقل: "مه! -أي: اسكت- إنما العاقل من وجد الله وعمل بطاعته"، هذا هو العقل، أما النصراني الذي يقول باسم الأب والابن والروح القدس! فهذا انتفى عنه هذا العقل خاصة، فلا يُسمَّى عاقلا ولو كان عاقلا لما فعل ذلك.

الدليل: كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قول أصحاب النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، أي: لو كنا نتمتع بالسمع الصحيح ونتَعَقَّله ما كنا في أصحاب السعير.

فالعقل يجمع هذه المعاني الأربعة: الغريزة، والعلوم الضروريَّة، والعلوم النظريَّة، والأعمال التي تترتب على العقل.

وكل ذلك يكون معنًى للعقل.

المسألة الثانية: منزلة العقل في الإسلام:

الإسلام احتَفَى بالعقل، بل احتفاؤُه أكثر من الذين يُمَجَّدون العقل من الفلاسفة القُدامَى والمعاصرين، الذين يُمجِّدون العقل لكنهم يُسيئون إليه إساءة بالغة، كما يمجدون الحرية وهم أبعد الناس عنها.

فالمذاهب هذه التي أرادت تمجيد العقل والرفع من شأنه حسب زعمهم= لم ولن يصل إلى عُشر مِعشَار ما بلغه الإسلام من تكريمٍ للعقل وتشريفٍ له.

وهذا إذا لم نَقُل: إنهم أساؤوا إلى العقل أيما إساءة، حيث أوغلوا به في مفاوز ومجالات لا يهتدي فيها إلى سبيل، فأدخلوا العقل في غير مجاله، فهذا العقل لا ينطق هنا بالحقيقة ولا بالصواب، بل بالخطأ والاضطراب.

الحيرة والتناقض مآل كل من أقحم العقل في غير مجاله:

ولهذا صاروا متناقضين متناحرين متنابزين بالألقاب، وكلٌّ يدَّعي أنه صاحب عقل وصاحب يقين.

فهؤلاء أصحاب العقل على ما بينهم من الاختلاف والتنازع، كلٌّ يدَّعي استناده إلى العقل وإلى قيام الحجة معه وظهور البرهان

عنده، **ومع ذلك يُجمِعون على أن حجة العقل قطعية**، وهم متنازعون متنابزون بالألقاب، يكفِّر بعضهم بعضًا، ويُضلِّل بعضهم بعضًا، ويخطِّئ على الأقل بعضهم بعضًا، ومع ذلك يأتون بالمسالة وضدها.

يقول ابن قتيبة رحمه الله مُبَكِّتًا على أمثال هؤلاء: "وقد كان يجب مع ما يدَّعونه من معرفةٍ بالقياس وإعداد آلات النظر ألَّا يختلفوا كما يختلف الحُسَّاب والمسَّاح والمهندسون؛ لأن آلاتهم لا تدل إلا على عدد وعلى شكل واحد، **فما بال هؤلاء أكثر الناس اختلافًا! لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمرٍ واحد في الدين**"؛ ولهذا لو نظرنا في كتب أهل الكلام وكتب أهل الفلسفة نجد مذاهب وأقوال شتى متضاربة ومتعارضة ومتناقضة لا يكاد يتفقون على مسألة واحدة، ومع ذلك يدَّعون أنهم هم: أصحاب النظر الشديد والعقل الرشيد!

وهذا شأن كل من أعرض عن الكتاب والسُّنَّة، وعن كلام الله وعن كلام رسول الله ﷺ= أن يكون أمره مختلفًا.

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾[البقرة:١٣٧]، أي: في اختلاف.

فالإسلام قد كرَّم العقل تكريمًا عظيمًا ظهر ذلك في أمور عدة، ومن ذلك:

١- كرَّمه حينما **جعله مناط التكليف**، فلا تكليف إلا بعقل والمجنون لا يُكلَّف.

الدليل: في الحديث قول النبي ﷺ: **"رُفِع القلم عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ"**(١)، فكل هؤلاء قد رفع عنهم قلم التكليف؛ لأن العقل هو مناط التكليف.

٢- **فضَّل الله الإنسان بالعقل** على كثير من المخلوقات الأخرى.

٣- وكرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حينما **وجه هذا العقل إلى النظر والتفكر والتأمل في النفس وفي الكون وفي الآفاق؛ ليتعظ ويعتبر ويكون أقرب إلى الله ﷻ.**

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، أي: كلما تعمَّقَ الناس في العلم كلَّما اقتربوا من الله؛

---

(١) أخرجه أبو داوود في سننه (٤٣٩٩)، والترمذي في سننه (١٤٢٣)، والنسائي في السنن (٥٦١١)، وابن ماجه في سننه (٢٠٤١)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٤١/١): "صحيح".

ولهذا أكثر الذين أسلموا في أوروبا وفي الغرب إنما كان من هذا الباب: باب العلم؛ فأكثر الذين دخلوا في الإسلام إنما هم علماء وخبراء في مجالاتهم المتنوعة والمتعددة من العلوم الطبية والعلوم الكونية وغيرها من العلوم، من خلال علومهم يختارون الإسلام دينًا لهم بعد طول بحثٍ وطول تأمُّل، فالإسلام يحثُّ العقل على التَّأمل؛ ليتَّعظ ويعتبر وليعرف الحقيقة والصواب.

٤- بالعقل تُسخَّر نعم الله ﷻ ويُستفَاد منها.

٥- أن الله ﷻ **أَكرَمَ هذا العقل بإمساكه عن الولوج والدخول فيما لا يُحسِنُه ولا يهتدي فيه على سبيل**؛ وذلك رحمةً به وإبقاءً على قوته وجهده، حتى لا يضيع وقته وتضيع الجهود في أمور هو لا يُحسِنُها.

مثال: **الأمور الغيبية التي تحتاج إلى نصوص**، فلا تُعرَف أحوال البرزخ وما يدور في القبر من أحداث وأحوال، فلا العقل ولا الحس يهتدي فيه؛ فهنا يتلقى عن الشرع.

وذلك مثل: إخبار النبي ﷺ عمَّا يدور في القبر، قال ﷺ: "القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار"[(١)]، فلو فَتَحنا جميع القبور الآن لن نجد فيها ما يدل على أن هذا القبر فيه جنة ونعيم أو آخر فيه نار وعذاب، ما نجد إلا عظامًا نخرات، **لكن الخبر يقول: القبر واحد من أمرين:**

١. إما روضة من رياض الجنة.

٢. أو حفرة من حفر النار.

فالعقل هنا يصدِّق هذا الخبر ولا يعترض عليه؛ لأنه ثبت حسيًّا وواقعيًّا أن كثيرًا من الأمور اكتشفناها الآن في هذا العصر الحديث بعد أن وجدنا وسيلة اكتشافها، وهي موجودة قبل أن تكتشف.

وذلك مثل: ما يتعلق بالبكتيريا والفيروسات وغيرها، كان موجودًا قبل أن تكتشف، لكن لم تكن تُعرَف؛ لأن وسيلة اكتشافها لم تكن موجودة، وكذلك الأمور الغيبية؛ ولهذا قال الله ﷻ في أحوال

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٦٠)، والطبراني في المعجم (١٤٢٣٣)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٦٨٠): "حسن".

الآخرة: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، فالأمور التي لم تكن تُدرَك في الدنيا سيُدركها صاحبها يوم القيامة.

٦- والله ﷻ خَصَّ أصحاب العقول بالمعرفة التامة لمقاصد العبادة وحِكَم التشريع، وهذا مما كرَّم الله به العقل.

أمثلة:

- قال الله ﷻ بعد أن ذكر جملةً من أحكام الحج: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

وكثير من الآيات التشريعية التي فيها ما يجب فعله أو ما يجب تركه تنتهي بمخاطبة أهل العقول وأهل الألباب وأهل النُّهى وأهل الحِجَا؛ لأنهم أكثر الناس فهمًا.

- وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩]، فكيف القصاص الذي هو: الموت والإعدام فيه حياة؟ **فهذه لا يفهمها إلا أولوا الألباب.**

٧- قَصَرَ الله ﷻ الانتفاع بالذكر والموعظة على أصحاب العقول.

الأدلة على ذلك:

- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

- وقـــــال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف:١١١].
- وقـــــال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[العنكبوت:٣٥].

٨- ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: أصحاب العقول، **وجمع لهم النظر في ملكوته والتفكر في آلائه، مع دوام ذكره ومراقبته وعبادته،** فجمع لهم بين النظر والتأمل في الملكوت، وفي مخلوقات الله، وفي آلاء الله وفي نعم الله المتعددة، وهذا يُذكِّرهم بذكر الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته وحمده وشكره.

الـدليل: قـال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران:١٩٠].

فمن هم أولوا الألباب؟

قـال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هـم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[آل عمـران:١٩١]، إلى قولـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[آل عمران:١٩٤].

وهـذا بخـلاف مـا عليـه أصـحاب المـذاهب الضـالة في العقـل فمنهم:

- ☒ **من اعتمد العقل طريقًا إلى الحق واليقين مع إعراضه عن الوحي بالكلية**؛ كما هو حال **الفلاسفة**.
- ☒ **من أسقط حكم الوحي عند التعارض المُفتَرَى بين العقل والنقل**؛ كما هو حال كثير من **المتكلمين**.
- ☒ ومنهم من جعل الحق هو **ما تشرح به نفسه وتفيض به روحه**، وإن خالف ذلك أحكام العقل الصريحة أو نصوص الوحي الصحيحة؛ كما هو حال **الباطِنيَّة وغُلَاة الصوفية**.
- ☒ ومـنهم **الإماميـة مـن الشـيعة الرافضـة** الـذين **يعارضـون الـوحي بالأقـوال والأحـوال المنسوبة إلى أئمـتهم أو أئمـة أهـل البيـت** زورًا وبهتـانًا يعارضـون بهـا نصـوص الـوحي، بـل يعارضون بها العقل الصريح.

فكـل هـؤلاء محجوبـون عـن اسـتخدام العقـل الاسـتخدام الصـحيح، وإلا لـو كـانوا عقـلاء مـا فعلـوا ذلـك، ولـو كـان النصـارى عقلاء ما فعلوا ذلك وما اعتقدوا مثل هذه الاعتِقَادات الباطلة.

وهؤلاء الرافضة الذين يضربون أنفسهم في كل عام حزنًا على الحسين -ما يسمى باللطم- لو كانوا عقلاء ما فعلوا ذلك.

فأهل العلم والإيمان ينظرون في ملكوت خالقهم نظرًا يستحضر عندهم قوة التَّذكُّر والاتِّعاظ، وصدق التَّوجه إلى الخالق الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير أن يخطر ببال أحدهم ثَمَّة تعارض بين خلق الله وبين كلامه.

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

٩- **أن الله ﷻ ذم المقلدين لآبائهم**؛ لأن هؤلاء أَلغوا عقولهم واكتفوا بالتقليد؛ لحُسنِ ظنهم بآبائهم، فتنكَّروا لأحكام العقول فضلًا عن أحكام الشرائع، كل ذلك رضا بما صَنَع آباؤهم؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة]، فجرَّد أمثال هؤلاء الذين اكتفوا بتقليد الآباء والأجداد من العقل، مع أن الآباء والأجداد إذا خالفوا الشرع فقد خالفوا العقل،

وإذا خالفوا العقل فقد خالفوا الشرع، فلا ينبغي تقليدهم في ذلك.

١٠- ومن تمجيد وتعظيم الإسلام للعقل أنْ **حرَّم الاعتداء عليه حسيًّا ومعنويًّا** حتى لا يُعَطَّل العقل عن إدراك المنافع.

أمثلة ذلك:

- ✓ حرم الله ﷻ على المسلم شرب المسكِر والمفتِّر وكل ما يُخَامِر العقل ويغطِّيه عن مصالحه.
- ✓ جعل الإسلام الدية كاملة في الاعتداء على العقل غير الاعتداء على اليد أو على القدم، فالاعتداء على العقل فيها الدية كاملة لأهمية العقل؛ ولأن من فَقَد عقله بسبب ضرب أو اعتداء كأنما فَقَد نفسه فقد ضاعت المنفعة؛ ولهذا قال عبد الله ابن الإمام أحمد: "سمعت أبي يقول: "في العقل دية"، أي: دية كاملة؛ كأنها دية نفس، وحتى أن ابن قدامة قال: "لا نعلم في هذا خلافًا".

١١- **شدَّد الإسلام في النهي عن تعاطي كل ما تنكره العقول وتنفر منه.**

أمثلة على ما نُهي عنه:

☒ **التطير والتشاؤم** سواءً بصفر، أو ببعض الأعداد، وبعض الحيوانات والطيور، فالتشاؤم كله مرفوض؛ لأن هذه الأمور كلها لا تستند لا لشرع ولا لعقل.

☒ **الاعتِقَاد في الأنواء وإتيان الكهان والسحرة**، وكل من يدعي الغيب.

☒ **تعليق التمائم** وغيرها من الحروز إلى آخره.

وهذا فيه نصوص كثيرة جدًّا، وكل هذا من باب احترام العقل وتوفير جهد العقل لما ينفع صاحبه.

مع أمر الشارع العبد أن يأخذ بالأسباب ويتوكل على خالق الأسباب.

والدليل على ذلك: كما قال ﷺ: **"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو**

أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان"[١].

هذا وغيره من باب العناية بالعقل وتعظيمه وترشيده وتوفير جهده لما يصلح حال الإنسان في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

الدَّرسُ الثَّامِن

المصدر الأول: العقل (٢)

المسألة الثالثة: العقل أحد مَصَادِر المعرفة:

بعد أن تم التعريف بالعقل، وذكر أهميته وتعظيم الإسلام له نشرع في العقل باعتباره أحد مَصَادِر المعرفة؛ **وذلك باعتبارين:**

١- العقل باعتباره أحد مَصَادِر المعرفة بشكل عام.

٢- وباعتباره أحد مَصَادِر المعرفة الدينية بشكل خاص.

العقل في المخلوق صفة كمال له حدوده البشرية:

فالعقل في الإنسان كغيره من الصفات الكمالية أي: كالسمع والبصر والحركة والحياة، ولا شك أن صاحب العقل أفضل من غيره، فهي وإن كانت كمالًا في حق الإنسان إلا أن لها حدود لا تتجاوزها ولها أقدار لا تتخطاها.

فالإنسان مخلوق وصفاته مخلوقة، وهذه الصفات وإن كانت كمالات **لكن يعتريها ما يعتري المخلوق من القوة والضعف**

والخَوَر، والوجود والعدم، والصحة والمرض إلى آخره من أنواع العوارض التي تعرض بحياة الإنسان.

والعقل أيضا كذلك، فجعل الله له حدًّا في إدراكه الأشياء ينتهي إليه ولا يستطيع أن يتعداه، فلم يجعل له سبيلًا إلى إدراك كل مطلوب، وإنما له حدود.

ولو كان ذلك -وهو أن العقل يدرك كل ما يريده صاحبه- للزم عنه:

- **تَسَاوى العقل البشري مع العليم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون!
- ولو كان العقل يدرك كل مطلوب؛ لاستغنى الخلق به عن الوحي **فلا داعيَ لإرسال الرسل وإنزال الكتب اكتفاءً بالعقل**، والله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فالحجة على الخلق في الرسالات وليس في العقول.

فإن العقول يعتريها من أنواع الضعف ما يعتريها وأحيانا يغلب عليها الهوى، فكم من عقلاء يتصرفون بأمور يرفضها العقل.

مثال: الذين يتعاطون المخدرات والخمور والمسكرات، بل يتعاطون التدخين.

كل هؤلاء وإن كانت لهم عقول، لكن مع ذلك يتعاطون أشياء ترفضها العقول.

فمن الأمور التي أجمع عليها كل الناس بشتى جنسياتهم وأديانهم وأماكنهم ومواقعهم: **أن التدخين يضر بالصحة**، فهذا أمر مجمع عليه وأصدرت منظمة الصحة العالمية قرارًا ألزمت به شركات التدخين أن تضع على علب السجائر هذه العبارة: "التدخين يضر بالصحة ننصحك بالامتناع عنه"، ومع ذلك ما أكثر الذين يتعاطون هذه الآفات!

أليست لهم عقول؟

وفيهم الخبراء والعلماء والفلاسفة وحتى الأطباء المتخصصون في مجالات الطب المتنوعة!

فالعقل قد يغلبه الهوى وتغلبه الشهوة، وقد تغلبه بعض المصالح المضمونة.

فالمقصود بالإدراك إذًا: العلم بالشيء بذاته جملةً وتفصيلًا، فالعقل لا يعلم بالأشياء جملة وتفصيلًا ولا يعلم صفات الأشياء وأحوالها وأفعالها إلى آخره، والله عَزَّلَ هو الذي يحيط بكل شيء علمًا على وجه الكمال والتمام؛ بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من ذلك.

أما العقل بخلاف ذلك قطعًا، **فالعقل وإن أدرك فإدراكه يكون لبعض هذه الأشياء**، وهذا البعض فيه قصور وضعف وغفلة ونسيان وجهل، وفيه عدم الإحاطة، إلى غير ذلك من أحوال القصور والضعف.

مثال ذلك: هذه الروح التي هي سِرُّ الحياة في الإنسان، وهي وُصِفت بأنها تخرج من الإنسان فيكون الموت، وتدخل إليه فتكون الحياة، وتنفصل عنه في النوم فتقطع المسافات الشاسعة وتزور البلاد النائيات وتفعل من الأعاجيب ما لا يقع على بال، ويرى المرء بنومه ما لم يكن يحظى برؤيته في اليقظة!

ومع ذلك لا تُعرَف لهذه الروح كيفية معينة ولا حقيقة مدركة غير أنها: تذهب وتجيء، وتصعد وتهبط، وتدخل وتخرج، وهي مع ذلك حيَّة وعالمة وقادرة وسامعة وبصيرة، كما جاءت بذلك النصوص ودلت على ذلك الشواهد العقلية، **ومع ذلك العقول قاصرة عن تكييف هذه الروح وعن تحديدها؛** ولهذا لما سُئِل رسول الله ﷺ عن الروح أي عن كيفيتها وحقيقتها كان الجواب من العليم الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، وإلى الآن هذه الروح تُحيِّر العقلاء والعلماء.

فالعقل كذلك إنما يستند في أحكامه إلى معطيات الحس وهي: الحواس الخمسة:

- السمع.
- والبصر.
- والذوق.
- والشم.
- والحس.

فهذه هي الرسل التي ترسل المعلومات إلى العقل، وهي التي تنقل مدركاتها عن الأشياء الموجودة والمحسوسة والمشهودة إلى العقل.

ودور العقل: أن يقوم بعملية التركيب والتحليل، والتجميع والتفريق، وقياس الأشباه والنظائر، واستنباط القواعد واستخراج النتائج، واستصدار الأحكام، وهو في كل هذا العمل إنما يعتمد على هذه المعطيات الحسية التي وردت إليه.

ولذلك لا يُدرِك العقل الأمور الغيبية؛ لأن الحواس الخمس لا تستطيع أن تصل إليها، وبالتالي لا يملك العقل معلومات عنها؛ لأن الأمور الغيبية لا تقع عليها الحواس الخمس، وبالتالي لا يجوز له أن يتكلم.

وإذا تكلم صاحب هذا العقل فهو: قد نطق بالباطل والخطأ وبالخيالات وقد يسميها: العقليات، لكنها ليست بأمور عقلية؛ لأن العقل لا يستطيع.

أقسام العلوم من حيث إدراك العقل لها:

ولمعرفة ما يمكن للعقل إدراكه وما لا يمكن نتحدث عن أقسام العلوم حتى تتضح هذه الأمور أكثر فأكثر، **فالعلوم من حيث إدراك العقل تنقسم إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: العلوم الضروريَّة:

وهي: العلوم التي لا يمكن التَّشكيك فيها، فهي تلزم جميع العقلاء ولا تنفك عنهم، ولا يتفاضل فيها الناس، فما دام هذا الإنسان عاقلًا فهو يملك هذه العلوم الضروريَّة.

أمثلة:

- علم الإنسان بوجود نفسه.
- وأن الاثنين أكثر من الواحد.
- واستحاله الجمع بين النقيضين، كالجمع بين الحياة والموت، والحركة والسكون، أو الوجود والعدم.

إلى غير ذلك مما يسمى بقوانين العقل الضروريَّة.

فهذه العلوم ضروريَّة موجودةٌ عند كل عاقل، وهي أساسية بدونها لا يسمى هذا الإنسان عاقلًا، بل يسمى مجنونًا معاقًا عقليًّا إلى آخره، حتى توجد هذه العلوم الضروريَّة، وهي مهمة جدًّا للعلوم النظريَّة.

القسم الثاني: العلوم النظريَّة الكسبيَّة:

وهي: التي تقوم بالتأمل والنظر والاستِدلَال، وتحصل بالحوار والنقاش والسؤال والجواب، وهذه لا تنفع صاحبها بدون العلوم الضروريَّة؛ لأنها تعتمد على العلوم الضروريَّة.

توضيح ذلك: كجهاز الحاسوب فيه برامج تشغيل أساسية كالويندوز في الجهاز، فإذا لم يوجد هذا البرنامج فكل البرامج والتطبيقات الأخرى لن تعمل إلا بوجود البرامج الأساسية.

كذلك العلوم النظريَّة التأمُّليَّة الاستِدلَاليَّة، لا يمكن أن توجد بدون وجود العلوم الضروريَّة.

ففائدة العلوم النظريَّة أنها كثيرة ومتنوعة ويتفاضل فيها الناس، وهي تدخل في مجالات كثيرة في الطبيعيات، والعلوم الحسية، والرياضيات، والصناعات.

وهذا النوع من العلوم النظريَّة فيه قسمان:

١- **قسمٌ يتمحَّض العمل فيه للعقل**، وهذه عادة تكون في العلوم المفضولة كالأمور الطبيعية والرياضيات والطب والصناعات والحِرَف، فهذه تركها الله ﷻ لعقل الإنسان يعمل فيها ويطور نفسه ويتأمل.

ولهذا نقول: هناك فرق بين الإبداع والابتداع، فنحن مأمورون بالإبداع وأن نُعمِل عقولنا فيما نُحسِنُه، ومأمورون بالاتباع، ومنهيُّون عن الابتداع أي: أن نبتدع في الدين ما ليس منه وأن نظن أن هذا من الإبداع، لا!

والخلاصة:

- الإبداع يكون في الأمور الحياتية الدنيوية، وهذه مطلوب منا أن نسعى إلى تطويرها وإلى الاستفادة منها قدر الطاقة.
- أما أمور الدين فهي محسومة بالنص، إلا ما كان له مجال من الاجتهاد.

٢- قسمٌ يجمع بين النظر العقلي والنظر الشرعي:

مثال: قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، فقال الإمام الشافعي: "فخلق لهم العلامات، ونصب لهم المسجد الحرام، وأمرهم أن يتوجَّهُوا إليه، وإنما توجُّهُهم إليه بالعلامات التي خلق لهم وبالعقل التي ركَّبَها فيهم، التي استدلوا بها على معرفة العلامات وكل هذا بيان ونعمة منه جل ثناؤه".

فنحن مأمورون بالعبادة والتوجه إلى المسجد الحرام والصلاة إلى جهة القبلة، وهذا لا يكون إلا باستخدام العقول، فجمع بين الأمر الشرعي والأمر العقلي.

واستخدام العقول هنا هو: كيفية الاهتداء إلى جهة المسجد الحرام، فنستخدم فيها عقولنا سواء بالنظر في النجوم، أو باستخدام الآلات الحديثة، أو بغيرها من الوسائل.

القسم الثالث: العلوم الممتنعة:

وهي: الأمور الغيبية التي لا مجال فيها للعقل إلا أن يُعَلَّمَها العقل، فلولا أن الله ﷻ أخبرنا عن الملائكة والجن والجنة والنار وأحوال البرزخ لما عرفنا ذلك، ولما اهتدينا فيها بالعقول ولا بالأدلة الحسية ولا غيرها.

الشريعة جاءت بمحارات العقول لا بمحالاتها:

فهذا المجال هو مجال الشرع والخبر عن الله ﷻ، والعقول هنا تُصدِّق فقط؛ لأن الله ﷻ لا يخبر عن شيء تحيله العقول أي: تقطع العقول باستحالته، كما قال الإمام الشاطبي: "**إن الشريعة جاءت بمحارات العقول لا بمحالاتها**" أي: الشريعة أتت بأمور تحيِّر العقل لكن لا يستحيل هذا الأمر في نظر العقل، فلا تأتي بشيء

يقتضي الجمع بين النقيضين، ولا ما يقتضي أن الاثنين أقل من الواحد.

فلا يمكن للشريعة أن تأتي بذلك، فحتى معجزات الأنبياء كعصا موسى، ليس مستحيلًا عقليًّا، وإن لم يتعوَّد الناس أن العصا تنقلب إلى كائن حي، فهي كانت في الشجرة كائنا حيًّا، ثم جفَّت ثم أعاد الله لها الحياة في شكل آخر في شكل حيَّة، فهذا لا يستحيل عقلًا؛ **ولهذا لا يوجد في معجزات الأنبياء أشياء تمنع العقول وجودها أبدا، وإنما أشياء تحير العقل**؛ ولهذا عجز عن محاكاتها وعن تحدِّيها المخاطبون بها.

المسألة الرابعة والأخيرة: موقع العقل من المطالب الاعتِقَادية:

كنا في المسألة السابقة قسمنا المدرَكات العقلية إلى ثلاثة: علوم ضروريَّة، وعلوم نظريَّة، وعلوم ممتنعة وهي: الغيبيات ولا مجال للعقل فيها.

- **الأول: العلوم الضروريَّة:**

وهي: التي جادل الإسلام بها أصحاب العقائد الفاسدة، ففي القرآن الكريم يحثُّ الله ﷻ ويدعو الناس إلى تحكيم عقولهم: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥٤]، وذلك

في آيات كثيرة جدًّا، وهذا هو النظر بالعلوم الضروريَّة؛ لأنها قوانين فطرية لا ينكرها إلا مكابر أو جاهل لا يتصور ما يقول.

أمثلة:

القرآن الكريم يطالبهم:

- أن يجمعوا بين المتماثلات.
- وأن يفرقوا بين المختلفات.
- وأن يلحقوا الشيء بنظيره.
- وأن يلحقوا الفرع بأصله.
- والاستدِلَال بالأثر على المؤثر.

ويذكِّرُهم دائما بتحكيم العقل والبعد عن الهوى الذي يُلجِئُهم إلى موقف حرج مع أنفسهم، حتى يظهر لهم التناقض والتنافر بين ما يعتقدونه من عقائد، وبين القوانين العقلية التي يستوي فيها كل الناس، **فبعد ذلك لا يبقى أمامه إلا الكفر:**

- فإما أن يكفر بعقائدهم ويوافق عقولهم وبالتالي يدخل في دين الله الذي هو دين العقل ودين الفطرة ودين المصلحة.
- أو يبقوا في هذا التناقض وهذا الاضطراب؛ كما هو حال أهل الشرك في كل زمان.

الدليل: قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فهل عاقل يقول هذا؟

وكان الواجب أن يقول: فاهدنا إليه!

لماذا يتخذ الإنسان لنفسه عداوة مع الحق ومع الصواب؟

ومع ما تقتضيه العقول وما تقتضيه المصلحة الحقيقية؟

فلماذا يعادي الإنسان نفسه؟

بل كان الواجب أن يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا إليه ووضِّحه لنا واهدنا إليه، فهذا كان الواجب لكن؛ لأنهم يرفضون كل جديد لا يوافق أهواءهم وشهواتهم، ويفوِّت عليهم ما يسمونه بالمصالح، وهي في الحقيقة ليست بمصالح فعادَوا الحق وقالوا: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الأنفال: ٣٢].

- **الثاني: العلوم التي لا تدركها العقول:**

فمنها: مسائلُ الاعتِقَاد ولا سيَّما التفصيليَّة، فالعقل قد يدرك الأمور الكليَّة؛ كوجود الله ﷻ ووحدانية الله ﷻ وكمال صفات الله ﷻ.

لكن الأمور التفصيلية تحتاج إلى وحي كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، فهذا لابد له من وحي، وهي من الصفات الخبرية لله ﷻ.

فالعقول لا يمكن أن تدرك الأمور التفصيلية في المسائل الغيبية إلا بوحي، وهذا الوحي يذكر أدلة هذه الأمور العقلية، فليست خبرًا مجردًا وإنما الوحي يذكر أدلتها العقلية حتى تستأنس بها العقول.

وكثير من مسائل الاعتِقَاد بعد معرفتها والعلم بها فإن العقول لا تدرك حقيقتها وكيفيتها.

مثال: الله ﷻ أخبرنا عن صفاته وأخبرنا عن أفعاله وعن أسمائه، وعن حقائقَ تتعلق باليوم الآخر من بعد الموت إلى الجزاء إلى الجنة وما فيها من نعيم والنار وما فيها من عذاب، لكن العقل لا يدرك حقائق هذه الأمور، ويعجز عن درك كَيفيَّاتها.

لكنه لا يُحِيلُها ولا يمنع من إمكان وجود هذه الأمور؛ لأن هناك فرق بين عدم الإدراك لها كما يقول العلماء: "**عدم العلم بالشيء ليس علمًا بالعدم**"، فهذه الأمور التفصيلية وإن أخبرت بها الشريعة، إلا أننا لا نعرف كيف هي، ولا نعرف حقائقها إلا يوم القيامة حينما ينكشف الغطاء كما يقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق:٢٢].

والرسول ﷺ قال: "في الجنة ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"(١)، فهو فوق التصوُّر، فما في الجنة من نعيم؛ لا عين رأت قبل ذلك، ولا أذن سمعت قبل ذلك، ولا خطر على قلب بشر، فهو شيء فوق الخيال وهذا ما يتعلق بنعيم الجنة.

تم الجزء الأول ويليه الجزء الآخر

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).